حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

٩

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
رئيس مجلس الإدارة
أ.د. أيمن فؤاد سيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

مجلة سنوية محكمة تعنى بالتاريخ الإسلامي والوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط
بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية

كل الحقوق محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع
2735-3923

رقم الإيداع بدار الكتب
2013/18750

الترقيم الإلكتروني
2735-4725

موقع المجلة على بنك المعرفة:
hsew.journals.ekb.eg

٢٠٢١م

قطعة ٤ بلوك ٧ – المنطقة التاسعة – شارع د. رؤوف عباس- مدينة نصر – القاهرة
تليفون: ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ – ٢٧٤٢٨٢٩١ – ٢٧٤٢٨٢٩٦ – فاكس ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ
التَّاريخِ الإسلاميَّ والوسيط

مَجلة عِلميَّة مُحَكَّمة

تُصْدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات : الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

العدد التاسع

القاهرة

١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م

رئيس مجلس الإدارة أ.د. أيمن فؤاد سيد

هيئة التحرير

رئيس التحرير: أ.د. حسين سيد عبدالله مراد

مديـر التحرير: د. محمد فوزي رحيل

أ.د. صلاح الدين علي عاشور

أ.د. عبير زكـريا سليـمان

أ.د. نهلـة أنيس مصطفى

د. عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم

الهيئة الاستشارية الدولية

أ.د. إبراهيم عبدالمنعم سلامة (مصر)

أ.د. اسحق تاوضروس عبيد (مصر)

أ.د. حاتم عبدالرحمن الطحاوي (مصر)

أ.د. عبدالقادر بوباية (الجزائر)

أ.د. عبدالله بن سعيد الغامدي(السعودية)

أ.د. عبدالهادي ناصر العجمي (الكويت)

أ.د. عفاف سيد صبرة (مصر)

أ.د. فتحي عبدالفتاح أبو سيف (مصر)

ا.د. قاسم حسن السامرائي (العراق)

ا.د. لطفي بن ميلاد (تونس)

أ.د. محمد أحمد بديوي (مصر)

أ.د. محمد عيسي الحريري (مصر)

أ.د. محمد الناصر صديقي (تونس)

Prof. Dr. Albrecht Fuess (Germany)

Prof. Dr. Sylvie Denoix (France)

Prof. Dr. Tetsuya Ohtoshi (Japan)

المحرر الفني أ. ياسر السيد عبدالعزيز

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو السمنار أو الناشر

شروط النشر بالحولية

- ترحب الحولية بنشر البحوث العلمية المبتكرة في التاريخ الإسلامي والوسيط باللغتين العربية والإنجليزية.
- يفضل أن يكون البحث في حدود ٣٥ صفحة، بما في ذلك الحواشي اللازمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع.
- ترسل البحوث على موقع الحولية على بنك المعرفة ولن يلتفت إلى الأبحاث التي ترسل عن طريق آخر.
- يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة (CV)، وملخصًا للبحث باللغة العربية ولغة أجنبية في حدود (١٥٠) كلمة لكل منهما والكلمات المفتاحية.
- يقدم الباحث إقرارًا كتابيًّا بأن البحث لم يسبق نشره في أي مجلة علمية أو غيرها، وعدم الدفع به إلى النشر في جهات أخرى بعد موافقة الحولية على نشره.
- تقدم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بأصولها الصالحة للطباعة، وفي حال رغبة الباحث نشرها ملونة يلتزم بدفع تكاليفها.
- تتمتع الحولية بحق الملكية الفكرية للبحوث التي تنشرها، ويمكن للباحث إعادة نشر بحثه في جهة أخرى بعد مرور خمس سنوات على النشر بالحولية، وبموجب أذن كتابي من رئيس تحرير الحولية.

- لا تقبل الحولية البحوث التي سبق نشرها في أي مجلة علمية أو غيرها.
- توضع الهوامش مرتبة بطريقة متسلسلة في أسفل البحث.
- تخضع البحوث قبل النشر للتحكيم العلمي على نحو سري (معمي).
- يتم تقويم البحث وفقًا للعناصر التالية:
  - أن يكون البحث مبتكرًا، ومضمونه متكامل علميًّا.
  - وضوح المنهج، وملائمته لموضوع البحث.
  - رعاية الإخراج العلمي وتوزيع عناصر البحث.
  - سلامة اللغة ووضوح الصياغات والعبارات.
  - كفاءة المراجع وصحة التوثيق، وسلامة الهوامش، ودقة استخدام المصادر والمراجع.
- البحوث التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، حتى وإن كانت طفيفة، وفي حال ما إذا رأت الحولية عدم نشر البحث، تخطر صاحبه بالاعتذار عن عدم النشر مع بيان الأسباب.

مُقَدِّمَة

يسعد أسرة تحرير حولية سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية، أن تقدم للمتخصصين فى الدراسات التاريخية وكافة القراء العدد التاسع من الحولية؛ والذي يصدر في جزئين، وقد شارك فى إعداده مجموعة من المؤرخين والباحثين على اختلاف أجيالهم من المتخصصين فى التاريخ الإسلامى والوسيط .

وكما تفتح الحولية صفحاتها لبحوث الأساتذة، فإنها تفتح صفحاتها أيضًا لشباب الباحثين المستوفين للشروط العلمية للنشر .

ويتضمن هذا العدد والذى يصدر فى مجلدين اثنى عشر بحثًا، عالجت موضوعات شتى فى التاريخ الإسلامى والوسيط منها خمسة أبحاث فى التاريخ الوسيط فى العصر البيزنطى.

وسبقه بحوث فى التاريخ الإسلامى؛ منها ثلاثة فى المشرق الإسلامى، ومثلها فى المغرب الإسلامى، والبحث السابع عالج موضوعًا مهمًّا فى التاريخ الإسلامى لأفريقيا جنوب الصحراء والتى تسمى السودان الغربي وتشمل غرب أفريقيا حاليًّا .

وتأمل هيئة تحرير الحولية بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية أن يحوز هذين المجلدين مع العدد التاسع على قبول المهتمين بالدراسات التاريخية . ونشكر كل الزملاء الذين شاركوا ببحوث جادة فى هذا العدد.

ونأمل أيضًا أن يوافينا الباحثون بأبحاثهم الجادة للنشر فى الأعداد القادمة للحولية حتى تستمر فى أداء رسالتها فى خدمة البحث العلمي والدراسات التاريخية.

واللهُ ثم الوطن العزيز من وراء القصد،،،

المشرف على السيمنار

ورئيس التحرير

أ.د. حسين سيد عبد الله مراد

مقرر السيمنار

ومدير التحرير

د. محمد فوزى رحيل

المحتويات

العدد التاسع - الجزء الأول

١- المقاومة الشعبية في القسطنطينية ضد الهون عـــام ٥٥٨- ٥٥٩م ١١-٧٢
أ.د. وديع فتحى عبد الله

٢- الوسيط الديني «الرهبان» بين حاجة المجتمع وتطلعات السلطة الإمبراطورية خلال العصر البيزنطي الباكر ..... ٧٣ - ١٥٦
د. مصطفى محمود محمد محمد

٣- الأميرة الكارولنجية دودا Dhuoda (٨٠٣-٨٤٤م.) دوقة سبتمانيا Septimania، من خلال مصنفها: "الكُتيب "*Liber Manualis* ..... ١٥٧ - ٢٠٠
د. عمر عبد المنعم إمام إبراهيم

٤- غارات النورمان على وادى نهر السين والسوم خلال حكم الملك شارل الأصلع (٨٥٦-٨٦٦م) ..... ٢٠١ - ٢٥٠
د. جمال فاروق الوكيل

٥- شيطان الإناث غيللو من منظور المعتقدات الشعبية في الإمبراطورية البيزنطية ..... ٢٥١ - ٢٩٨
د. محمد عبدالشافى محمد محمود المغربى

٦- المؤرخ محمد بن أحمد النسوي (ت: ٦٤٧هـ/١٢٤٩م) ورسالته: نفثة المصدور في فتور زمان الصدور وزمان صدور الفتور ..... ٢٩٩ - ٤١٢
د. وائل أحمد إبراهيم طوبار

٧- الأسرة فى السودان الغربى عصر مملكتى مالى وصنغى (٦٣٦- ١٠٠٠هـ/١٢٣٦- ١٥٩١م) ..... ٤١٣ - ٤٦٤
د. إبراهيم رجب محمود عبدالمجيد

المحتويات

العدد التاسع - الجزء الثاني

٨- المخزن في معيار الونشريسي ٤٦٥-٤٨٠

أ.د. ناريمان عبد الكريم أحمد

٩- **التعليم فى عصرى الرستميين والأغالبة «دراسة مقارنة» (١٦٠-٢٩٦هـ /٧٧٧-٩٠٨م)** ..... ٤٨١ - ٥٢٨

د. محمد على محمد عبدالرحمن

١٠- أسواق سجستان وحواضرها في العصر الصفاري (٢٥٣-٢٩٨هـ/ ٨٦٧-٩١٠م) ..... ٥٢٩ - ٦٢٤

د. محمد زين العابدين محمد مريكب

١١- **المقابر الإسلامية ومجتمع إفريقية (من ق٢هـ/٨م إلى ق٥هـ/١١م)** ..... ٦٢٥ - ٧٨٢

د. كريمة عبدالرؤوف محمد رحيم الدومى

١٢- **حرفة الخياطة في العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)** ..... ٧٨٣ - ٨٢٠

د. عبد الحميد جمال الفراني

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيَّ وَالْوَسِيط ٩ (٢٠٢١) جـ٢، ٦٢٥ – ٧٨٢

المقابر الإسلامية ومجتمع إفريقية
(من ق٢هـ/٨م إلى ق٥هـ/١١م)

Islamic cemeteries and an African Society
From the second century until the fifth century AH 8/11

د. كريمة عبدالرؤوف محمد رحيم الدومي (١)

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى حل الإشكالية التي تدور حول العلاقة بين أفراد مجتمع إفريقية والمقابر الإسلامية، وما مدى إسهام تلك العلاقة في كشف وتحليل وصياغة البنيات النفسية والسلوكية والاجتماعية والثقافية والذهنية لأفراد ذلك المجتمع. وقد اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي الوصفي ، والمنهج المادي التاريخي، كما أفادت من التحليل كأداة لاستقراء واستنطاق النصوص واستنباط بعض التخريجات والحقائق. وذلك من خلال عدة مباحث هي:

أولاً: مسميات القبر المتداولة في أدبيات الفترة.

ثانياً: صورة القبر في متخيل المغاربة وموقفهم منه.

(١) أستاذ مساعد، كلية البنات للآداب والعلوم والتربية – جامعة عين شمس .

karima.eldomy@yahoo.com

ثالثاً: توزيع المقابر وتموضعها بإفريقية.
رابعاً: أهمية الدفن وشكل القبر وبناؤه.
خامساً: عادات الدفن وارتباطها بالمستوى المادي للوسط الاجتماعي.
سادساً: التعدي على المقابر وتصدي الفقهاء.
سابعاً: القبر والحياة الاجتماعية.
ثامناً: القبر والذهنيات الفردية والجماعية.
تاسعاً: القبر والحياة الدينية والعلمية.
عاشراً: علاقة السلطة بالمقابر.

وقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج ، منها: أن صورة القبر ارتبطت بصورة الموت مكانة المقبور في أذهان أفراد المجتمع ، كما اتضح من علاقة الأحياء بالمقابر أنها شكلت مكانا للاعتبار، و مادة رئيسية في الوعظ والإرشاد، والدعاء، والرؤى، والوصايا، والأقوال المأثورة، والتمثلات، والمراثي. تبين من الدراسة أيضا أن القبر ارتبط بعديد من المهن والحرف ، التي عانى أصحابها من تعاطي اجتماعي سلبي من قبل باقي أفراد المجتمع ، كما ارتبط القبر ببعض العادات ، والسلوكيات الإيجابية والمنحرفة، التي حاول الفقهاء والصلحاء مجابهتها بطرق عدة. برزت كذلك من خلال الدراسة ذهنيات ومعتقدات عدة مرتبطة بالقبر. فضلا عن ارتباطه بالحياة العلمية والدينية والسياسية.

Abstract:

This study seeks to solve the problem that revolves around the relationship between members of an African society and Islamic cemeteries, and what The extent to which this relationship does contribute to detection, analysis and formulation of the psychological, behavioral, social, cultural and mental structures of the members of that society.The study relied on the descriptive historical method. It also benefited

from analysis as a tool for extrapolating and questioning texts and devising some graduations and facts. The study also benefited from some science closely related to history such as sociology and social psychology.The study concluded several results, the most prominent of which are: The image of the tomb was linked to the image of death and the position of the deceased person in the minds of members of society. The relationship between the neighborhoods and the tombs turned out to be a place of consideration, and it was also a basis material in preaching, Guidance, supplication, visions, commandments, adage, representations, and lamentations. The shape and construction of the tomb, and the apparatus of the deceased were primarily subject to class differentiation. The study also concluded that there is a close relationship between the tomb and the prevailing beliefs and mentalities. tomb was also associated with social, scientific, religious and political life.

مقدمة:

تعد المقابر مرفقًا مهمًا، يفي بحاجات الناس الجماعية في كل المجتمعات الإنسانية، وعلى مر العصور التاريخية. ومثلما توجد علاقة بين القبر والعالم الآخر –حسب المعتقدات الدينية المختلفة – فالصلة وثيقة أيضًا بين القبر والحياة، وهو ما تعكسه كثير من تصورات الأحياء، وممارساتهم الاجتماعية والثقافية والذهنية، وفقًا لما يتوارثونه من منظومة القيم الدينية والاجتماعية، التي صاحبت قناعاتهم ورؤاهم، وهو ماينطبق على ساكنة إفريقية خلال العصر الوسيط، التي ارتبطت بالمقابر في كل تفاصيل حياتها الاجتماعية والاقتصادية، وجانب من حياتها العلمية والدينية والسياسية، فضلا عن معتقداتها التي صاغت عقليتها وانعكست على سلوكياتها.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية دراسة المقابر ومجتمع إفريقية في توضيح العلاقة بين أفراد

المجتمع والمقابر؛ وهو ما يسهم في كشف وتحليل وصياغة البنيات النفسية والسلوكية والاجتماعية والثقافية والذهنية لأفراد ذلك المجتمع، والتي تشكل بحق التاريخ الحقيقي للمجتمعات الإنسانية. كما لم يتم إجراء دراسات مستقلة حول هذا الموضوع؛ مما دفع الباحثة لاختيار هذا الموضوع المعنون بـ "المقابر الإسلامية ومجتمع إفريقية (من ق٢هـ/٨م إلى ق٥هـ/١١م) "، بهدف محاولة الفهم العميق لتلك العلاقة في مختلف أبعادها، بوصفها منتجًا اجتماعيًا ذهنيًا يرتبط بكافة الوقائع الاجتماعية الأخرى.

أهداف الدراسة: انطلاقا من تلك الأهمية تهدف الدراسة إلى:

١- توضيح صورة القبر في متخيل أفراد مجتمع إفريقية.
٢- التعرف على توزيع المقابر وتموضعها بإفريقية.
٣- إبراز أهمية الدفن وتوضيح أشكال بناء القبور وإبراز الموقف الفقهي منها.
٤- التأكيد على عادات الدفن وارتباطها بالمستوى المادي للوسط الاجتماعي والموقف الفقهي من المغالاة.
٥- رصد أشكال التعدي المتعمد وغير المتعمد على المقابر والموقف الفقهي والاجتماعي منه.
٦- بيان طبيعة العلاقة بين القبر وتفاصيل الحياة الاجتماعية والدينية والعلمية لأفراد المجتمع.
٧- توضيح شكل علاقة السلطة بالمقابر والمقبورين، والمحددات التي تحكمت في صياغة تلك العلاقة.

إشكالية الدراسة وتساؤلاتها:

تسعى هذه الدراسة إلى حل الإشكالية التي تدور حول العلاقة بين أفراد مجتمع إفريقية والمقابر الإسلامية، وما مدى إسهام تلك العلاقة في كشف وتحليل وصياغة البنيات النفسية والسلوكية والاجتماعية والثقافية

والذهنية لأفراد ذلك المجتمع؟ وذلك من خلال عدة التساؤلات، هي:

١. ما مدى ارتباط صورة القبر في متخيل أفراد المجتمع بالموت، و مكانة المقبور؟
٢. هل للقبر حضور ملموس في تصورات الأحياء وممارساتهم الاجتماعية والدينية والذهنية؟
٣. كيف توزعت المقابر؟ وما أهم أنواعها؟
٤. ما مدى ارتباط عادات الدفن بالتمايز الطبقي؟ وما مدى فاعلية الموقف الفقهي من ذلك؟
٥. ما أهم أشكال التعدي البشري؟ وما الموقف الفقهي منه؟
٦. ما طبيعة العلاقة بين المقابر وتفاصيل الحياة الاجتماعية من خلال الوظائف، والعادات والذهنيات والسلوكيات؟
٧. هل هناك علاقة بين السلطة والمقابر؟ وما أهم محددات تلك العلاقة؟

فروض الدراسة:

تعد فروض الدراسة بمثابة إجابة مؤقتة عن الأسئلة البحثية التي تطرحها مشكلة الدراسة الآنفة، وقد تمت صياغتها في شكل علاقة بين المتغير المستقل (المقابر) والمتغير التابع (موقف المجتمع). وبعبارة أخرى فهي توقعات للباحث يتصورها من خلال المتغيرات الخاصة بمشكلة البحث. وقد استُخلصت فروض تلك الدراسة من خلال خبرة الباحث المتخصصة في ميدان تاريخ المغرب الإسلامي، ومن خلال اطلاعه على الدراسات السابقة المتعلقة ببعض جوانب موضوع البحث. وقد اعتمدت الدراسة الفروض البحثية بطريقة إثباتية تقريرية في صورة جمل قصيرة وبسيطة، يعبر من خلالها الباحث عن تفسيره أو استنتاجه لشكل العلاقة الارتباطية بين

مجتمع إفريقية والمقابر الإسلامية، وأثر تلك العلاقة على صياغة البنيات الذهنية والسلوكية لأفراد المجتمع. وقد جاءت الفروض على النحو التالي:

١- ارتباط صورة القبر في متخيل أفراد المجتمع بالموت، فضلا عن مكانة المقبور.

٢- وجود نظرتين متناقضتين للموت الأولى تعده فجيعة وصدمة كبرى، والثانية تتقبله وتعده خلاصا.

٣- حضور ملموس للقبر في الوعظ والإرشاد والدعاء، والرؤى، والوصايا، والأقوال المأثورة، والمراثي.

٤- توزيع المقابر خارج المدن غالبا.

٥- تنوع المقابر إلى مقابر عمومية وأخرى خاصة.

٦- ارتباط عادات الدفن بالمستوى المادي للوسط الاجتماعي واستنكار الفقهاء لأشكال المبالغة والمغالاة في جهاز الموتى وتزيين القبور.

٧- تَعَرض المقابر لأشكال مختلفة من الأخطار الطبيعية فضلا عن أشكال التعدي البشري وتصدي الفقهاء له.

٨- هناك علاقة وطيدة بين المقابر وتفاصيل الحياة الاجتماعية من خلال خلق وظائف عدة لبعض الشرائح الفقيرة والمعدمة، فضلا عن ارتباطها بعادات وسلوكيات أفراد المجتمع ومعتقداته وهو ما يشكل الذهنيات بوجه عام.

٩- توظيف السلطة للمقابر لتنفيذ مخططاتها سواء في كسب رضا العامة، أو في استغلالها لتنفيذ بعض العقوبات، والانتقام من بعض المغضوب عليهم.

الإطار المكاني والزمني للدراسة:

يشمل**الإطار المكاني** للدراسةإقليم إفريقية، الذي حددت مصادر

الفترة الجغرافية حدوده من برقة وطرابلس شرقًا إلى منطقة قسنطينة بالجزائر غربًا، ويحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب بلاد الجريد[٢]. وهو ما تشمله تونس الحالية. ولا ريب فقد شكلت إفريقية مركزا لانطلاق الإسلام، ثم أصبحت محط الإشعاع الديني والحضاري والسياسي في بلاد المغرب على مدى عدة قرون متتابعة شهدت ذروة الازدهار الحضاري وكذا فترات الاضمحلال والأفول.

أما **الإطار الزمني**، فيشمل الفترة من بداية القرن الثاني حتى نهاية القرن الخامس الهجريين ولا ريب فقد ضمت تلك الفترة عددا من السلطات الحاكمة المتعاقبة، امتدت من نهاية عصر ولاة بني أمية، ثم ولاة العباسيين، ثم عصر الدول المستقلة، كدولة الأغالبة، والدولة الفاطمية حتى رحيلهم إلى مصر، ودولة بني زيري الصنهاجيين– تابعين ومستقلين – مع عدم إغفال امتداد النفوذ السياسي والمذهبي لدولة بني رستم الأباضية في المغرب الأوسط، إلى منطقة جبل نفوسة وجربة وطرابلس وبعض مواضع أخرى من مدن إفريقية؛ ونظرا لتعدد السلطات الحاكمة على ذلك النحو؛ فقد آثرت الباحثة تحديد الإطار الزمني في العنوان بالقرون. كما كان لطبيعة الدراسة التي جاءت اجتماعية – ذهنية، أثرها في طول الفترة الزمنية، وهو أمر ملح غالبا في مقاربة الظواهر الاجتماعية والذهنية.

منهجية الدراسة:

اعتمدت الدراسة على مقاربة منهجية تحرص من خلالها على رصد الوقائع وتوثيقها، والتركيز على المنهج التاريخي الوصفي في تتبع علاقة أفراد مجتمع إفريقية بالمقابر بدءا بإطلاق المسمى ومرورا بتوزيع المقابر وشكل بنائها، وأشكال التعدي عليها، والوظائف المرتبطة بها، وصولا إلى علاقة

(٢) انظر خريطة إفريقية ملحق (١).

القبر بالحياة العلمية والدينية. تمت الإفادة ايضا من المنهج المادي التاريخي في رصد علاقة عادات الدفن وبناء القبر ومكانة المقبور بالتراتبية الطبقية داخل مجتمع إفريقية، تم التعويل كذلك على استقراء واستنطاق النصوص واستنباط بعض التخريجات والحقائق المتعلقة بصورة المقابر في متخيل المغاربة، والتي ارتبطت في أذهان الأحياء بالموت تارة وبالمكانة الاجتماعية والعلمية والكرامية للمقبور تارة أخرى، وانعكاس ذلك على جلال القبر وموضعه. فضلا عن أهمية الدفن، وعاداته ومدى ارتباطها بالوسط الاجتماعي الذي ينتمي إليه المقبور. وكذلك استنباط محددات علاقة السلطة بالقبر والمقبور. كما أفادت الدراسة من بعض العلوم وثيقة الصلة بالتاريخ كعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي في تحليل وتركيب بعض القناعات المتأصلة في العقلية المغربية والذهنيات بوجه عام في مجتمع إفريقية، وانعكاس ذلك على بعض السلوكيات الاجتماعية الإيجابية والمنحرفة لبعض أفراد المجتمع تجاه المقابر.

الدراسات السابقة:

تطرقتْ عدة أبحاث ودراسات لمجتمع إفريقية من خلال تراجم الفترة منها: "**المجتمع الأفريقي من خلال كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس لأبي العرب تميم**"، لمحمد الحبيب بن عبد الجليل[٣]، و "**مجتمع المدن الإفريقية من خلال رياض النفوس**"، لمحمد انقزو[٤]. كما تناولت دراسات أخرى مجتمع إفريقية من خلال النقائش الجنائزية لشواهد القبور من أهمها: "**المجتمع بإفريقية من خلال النقائش في العصر الأغلبي**"، لنصر الحنزولي[٥]، و"**بعض العائلات**

(٣) شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٦.

(٤) شهادة الكفاءة في البحث، غير منشورة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٧م.

(٥) شهادة الدراسات المعمقة، غير منشورة، كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ٢٠٠٥م.

القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري"، لنصر الحنزولي أيضا[٦]. و"**الطاعون بإفريقية من خلال شواهد قبور قيروانية جديدة**"، للطفي عبدالجواد[٧]، ولا ريب فقد تضمنت تلك الشواهد مادة تاريخية بالغة الأهمية تخص المعطيات البشرية والاجتماعية والديموغرافية والمذهبية[٨].

فضلًا عن أبحاث أخرى عكفتْ على دراسة تلك الشواهد من الناحية الفنية زخرفيًا ومعماريًا وجنائزيًا من أهمها: "**القيمة الفنية التاريخية للكتابات الشاهدية الإفريقية- مثال القيروان**"، لمحمد حسن[٩]، و"**النقائش العربية بكبرى مدن إفريقية التونسية إلى نهاية القرن الخامس الهجري**"، للطفي عبد الجواد[١٠]، و"**النقائش العربية بإفريقية وتطورها من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري**"، لخالد مودود[١١] و"**صناعة النقائش الجنائزية بالقيروان-الورشات غير الموقعة خلال القرن الخامس الهجري**"، للطفي عبد الجواد[١٢].

وقد أفادت الدراسة من بعض تلك الدراسات مثل دراسة، نصر

---

(٦) ضمن أعمال ندوة "**القيروان عاصمة حضارية في تاريخ المغرب الإسلامي**"، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة الزيتونة، ٢٠٠٦، ص٧٩-١٠٨.

(٧) ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية: "**القيروان وجهتها: دراسات جديدة في الآثار والتراث**" كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، ٢٠٠٩، ص ٨٩-١٠٥.

(٨) نصر الحنزولي، "**بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري**"، ضمن أعمال ندوة "القيروان عاصمة حضارية في تاريخ المغرب الإسلامي"، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة الزيتونة، ٢٠٠٦، ص٧٩.

(٩) مجلة الحياة الثقافية، ع ٢٥، تونس، يناير –فبراير ١٩٨٣م، ص٤-١٢.

(١٠) رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٦م.

(١١) ضمن أعمال المؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي "**النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي**"، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٨٨، ص٣٩-٥٢.

(١٢) المجلة التونسية لعلم الآثار، ع١، تونس، ٢٠١٣م، ص٣١-٥٥.

الحنزولي: بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش، لاسيما في استبيان الموقف من الموت من خلال نصوص بعض الشواهد، فضلا عن أهمية شاهد القبر كمصدر تاريخي لدراسة بعض العائلات المعروفة والمؤثرة في مجتمع إفريقية.

تم التعويل كذلك على دراسة عبد العزيز بل الفايدة: **"صورة الموت من خلال النقائش اللاتينية"** في التأكيد على أن الطابع الحتمي للموت هو الفكرة المسيطرة غالبا على كافة المجتمعات الإنسانية رغم تباين النظرة إليه. ورغم تأخر دراسة محمد مزين: **"الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر " للزياتي"**، إلا أنها أوضحت أنظاهرة الموت بوجه عام وجلال القبر وحرمته على نحو خاص كانت تثير مواقف ذهنية وعقائدية مختلفة، لها فاعليتها في صنع الحدث التاريخي.

كما أفاد البحث أيضا من الدراسة القيمة لخالد مودود المعنونة بـ **"النقائش العربية بإفريقية وتطورها من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري"**، في معرفة عدد شواهد القبور الباقية والمحفوظة وأهم ما تتسم به من براعة في الخط و النقش والزخرفة، وهو ما دل على براعة نقاشي الشواهد كأحد الحرف المهمة التي ارتبطت بالمقابر. فضلا عن أسماء أشهر نقاشي القبور.

وبالمثل عول البحث على دراسة محمد حقي المعنونة بـ **"عن الموت: تجهيز الموتى ومهن الموت"** في رصد الحرف المرتبطة بالقبر، والتي عملت بها غالبا فئات من العوام نظير أجور زهيدة؛ مما انعكس على مستوى عيشهم الذي لم يصل لحد الكفاف.

ورغم أهمية تلك الدراسات على الجملة إلا أنها لم تفردْ حيزًا للعلاقة بين القبر وحياة مجتمع إفريقية بوجه عام؛ كما لم تهتم بالذهنيات التي وجهت

سلوك الأفراد والجماعات، والتي تعد أحد مرتكزات التاريخ الجديد الذي لم يبلغ بعد في وطننا العربي ما بلغه على الصعيد العالمي؛ وهو ما حفز الباحثة نحو بحث تلك العلاقة في كافة تفاصيلها الذهنية والاجتماعية والاقتصادية، والعلمية والدينية والسياسية.

محاور الدراسة:

أفادت الدراسة من مصادر الفترة على اختلافها، ويأتي على رأسهاكتب السير والتراجم والطبقات، التي مثلت بحق السجل الأوفى للمعلومات لتلك الدراسة، يتبعها المصادر الفقهية والنوازلية والأدبية، فضلا عن كتب الجغرافية والرحلات، وأخيرا تأتي المصادر التاريخية الحدثية التي أمدتنا بقليل من المعلومات. ومن خلال المادة المستقاة من تلك المصادر أمكن دراسة الموضوع من خلال عدة محاور، هي:

أولًا: مسميات القبر المتداولة في أدبيات الفترة.

ثانيًا: صورة القبر في متخيل المغاربة وموقفهم منه.

ثالثًا: توزيع المقابر وتموضعها بإفريقية.

رابعًا: أهمية الدفن وشكل القبر وبناؤه.

خامسًا: عادات الدفن وارتباطها بالمستوى المادي للوسط الاجتماعي.

سادسًا: التعدي على المقابر وتصدي الفقهاء.

سابعًا: القبر والحياة الاجتماعية.

ثامنًا: القبر والذهنيات الفردية والجماعية.

تاسعًا: القبر والحياة الدينية والعلمية.

عاشرًا: علاقة السلطة بالمقابر.

أولًا: مسميات القبر المتداولة في أدبيات الفترة:

زخرتْ مصادرُ الفترة بعديد من المعاني والمترادفات الدالة على مكان دفن الإنسان، منها ما يشير إلى جزء من القبر ـ لكنه استعمل للدلالة على القبر كله ـ فضلًا عن ألفاظ أخرى استخدمت للإشارة إلى مكونات القبر على الجملة، في حين دلتْ ألفاظ أخرى على مكان تجمع القبور. وهو ما يمكن أن يفيدفي تصور تطور المقابر كأحد أهم تكوينات المدينة الإسلامية. فمن المعاني الدالة على جزء من القبر: اللحد[١٣]، وهو الشق الذي يحفر في جانب القبر لوضع المَيت، والجمع ألحاد ولحود[١٤]، ومما يأتي في معناه أيضًا: الحفير[١٥]، وهو ما يدل على استخدام أدوات حادة في حفر الأرض.[١٦] ورد كذلك لفظ التربة[١٧]، و"تُرْبةُ الإِنسان: رَمْسُه"[١٨]، أي ترابقبره[١٩]، الذي يهالعليه[٢٠] بعد الحفر والدفن[٢١]، "ورمسْتُ المْيِّتَ وأَرْمَسْته: دَفَنْتُهُ. ورَمَسُوا قَبْرَ فُلَانٍ إِذا كَتَمُوهُ وسَوَّوْه مَعَ الأَرض"[٢٢]. ورغم أن لفظ الصعيد يعني في لغة العرب: التراب أو الأرض المستوية أو وجه الأرض، إلا أنه اُستخدم

---

(١٣) المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**، تحقيق، بشير البكوش، ج٢، ط٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤م، ص ص ١١٤، ١٤٦؛ ابن رشيق، **ديوان ابن رشيق**، جمع وترتيب عبدالرحمن باغي، دار الثقافة، بيروت، د. ت، ص ص١١٤، ١٢٤.

(١٤) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ، ص٣٨٨.

(١٥) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٢.

(١٦) ابن منظور، مصدر سابق، ج٤، ص٢٠٤.

(١٧) أبو الطاهر الفارسي، **مناقب محرز بن خلف**، تحقيق، الهادي روجيه إدريس، باريس، ١٩٥٩م، ص١٧٤.

(١٨) ابن منظور، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٨.

(١٩) المصدر نفسه، ج٦، ص١٠٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٨.

(٢١) المصدر نفسه، ج١١، ص٩١.

(٢٢) المصدر نفسه، ج٦، ص١٠٢.

أيضاٍ للدلالة على التراب ذي الغبار، وعلى الأرض الخربة التي لا شجر فيها[٢٣]؛ ويبدو أن ذلك هو ما دفع أهل إفريقية إلى استخدامه على نطاق ضيق للدلالة على قبر الميت[٢٤]. أما الضريح[٢٥]: فهو الشق في وسط القبر[٢٦]، ورغم أن البعض أطلق لفظ الضريح على القبر كله، إلا أنآخرين أطلقوه فقط على القبر بدون لحد[٢٧].

اُستخدمتْ ألفاظٌ أخرى للإشارة إلى مكونات القبر جملة، ومنها: الأجداث[٢٨] وهي الأجداف أي القبور[٢٩]، أما اللفظ الذي كان أكثر تداولًا فهو: القبر[٣٠] وهو مدفن الإنسان، وجمعه قبور[٣١].

ومما دل على مكان تجمع القبور، لفظ الجبَّانة والجَبَّان[٣٢]، والجَبَّانة تعني:

---

(٢٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٥٤.

(٢٤) المازري، **شرح التلقين**، ج١، تحقيق، محمَّد المختار السّلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨، ص٢٨٧.

(٢٥) الوسياني، **السير**، ج١، ط١، تحقيق، عمر بن لقمان حمو بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، سلطنة عمان – مسقط، ٢٠٠٩، ص٣٥٢؛ المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٥.

(٢٦) القاضي النعمان، **دعائم الإسلام**، تحقيق، آصف بن علي فيضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣، ص٢٣٧؛ ابن منظور، مصدر سابق، ج٢، ص٥٢٦.

(٢٧) ابن منظور، مصدر سابق، ج٢، ص٥٢٦.

(٢٨) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩١.

(٢٩) ابن منظور، مصدر سابق، ج٩، ص٢٤.

(٣٠) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ص ٤٩٠، ٤٩٤-٤٩٥؛ الدباغ، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، ج١، تحقيق، إبراهيم شبوح وآخرين، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٨م، ص٩٩-١٠٠.

(٣١) ابن منظور، مصدر سابق، ج٥، ص٦٨.

(٣٢) القاضي النعمان، **كتاب افتتاح الدعوة**، ط٢، تحقيق، فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٨٦، ص٣١٦؛ المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ص ١٠٠، ٢٢٩، ج٢، ص٣٦٣؛ القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج٢، ضبط وتصحيح، محمد صالح هاشم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص ص٧٣، ٧٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٣.

الصحراء، وما استوى من الأرض ولا شجر فيه، وتسمى بها المقابرلكونها في الصحراء غالبًا "تسمية للشيء بموضعه" [٣٣]. وجمعها الجبابين [٣٤]، أو "الجبانات" [٣٥] أما إذا كان المكان الذي يشتمل على المقابر متسعًا ويحوي شجرًا فيسمى: البقيع [٣٦]، وهو من الألفاظ التي اُستخدمت على نطاق ضيق عند المغاربة للدلالة على مكان تجمع القبور [٣٧]، وربما كان ذلك أسوة بمقبرة المدينة المنورة التي عرفت ببقيع الغَرقَد؛ لأنه كان بها غرقد وقُطع، وهو نوع من شجر العضاة وشجر الشوك [٣٨]. أما اللفظ الأكثر شيوعًا للدلالة على موضع القبور [٣٩]، فهو: المقبرة أو المقبرة العظمى [٤٠]، وهو من الأوصاف التي وُصفت بها مقبرة باب سلم بالقيروان المعروفة بمقبرة قريش؛ [٤١] مما يشي بالأعداد العظيمة، التي دُفنت بها من العلماء والصالحين وعامة الناس الذين "لا يحصيهم إلا الله عز وجل" [٤٢].

وفي سياق آخر استخدم بعض صلحاء إفريقية لفظ "الجادة" للدلالة على القبر، كنهاية محتومة ولابد منها لحياة جميع البشر [٤٣]؛ انطلاقا من كونها

---

(٣٣) ابن منظور، مصدر سابق، ج١٣، ص٨٥.

(٣٤) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٨١.

(٣٥) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، ج٢، تحقيق، مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١م، ص٤٩٩.

(٣٦) ابن منظور، مصدر سابق، ج٨، ص١٨.

(٣٧) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، ج٥، تحقيق، محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٣٨٤؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٤٥٦.

(٣٨) ابن منظور، مصدر سابق، ج٣، ص٣٢٥.

(٣٩) المصدر نفسه، ج٥، ص٦٨.

(٤٠) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨.

(٤١) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨.

(٤٢) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٤٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٥.

تعني: "الطريق الأعظم الذي يجمع الطرق ولابد من المُرور عليه"[٤٤].

ثانيًا: صورة القبر في متخيل المغاربة وموقفهم منه:

يعد بديهيًا القول بارتباط صورة القبر بصورة الموت في أذهان أفراد المجتمع، وهي صورة تختلف من شخص لآخر، ومن فئة اجتماعية لأخرى، وذلك بحسب المعتقدات والتكوين العلمي والثقافي والثقل الاجتماعي للشخص المتوفى أو الأشخاص المرتبطين به عائليًا وعلميًا وولائيًا. وعليه يمكننا التمييز بين نظرتين متناقضتين، تتجلى الأولى: في كون الموت خسارة وفجيعة وصدمة كبرى[٤٥]، وهو ما هيمن على ثقافة الأغلبية من ساكنة مجتمع أفريقية، لدرجة أن هاجس الموت كان مسيطرًا عليهم حتى في الرؤى والمنامات[٤٦]. أما الثانية: فهي تتقبل الموت كقدر محتوم لكافة الخلق[٤٧]. وتسعى إليه[٤٨]، وتعتبره نوعًا من الخلاص، وهو ما عبر عنهالقاضي عبد الله ابن غانم (ت١٩٠هـ/ ٨٠٦م) لعُوَّاده في مرضه الذي توفي منه قائلًا: "هو الموت والغاية التي إليها نهاية الخلق، فصبر جميل يؤجر صاحبه خير من جزع لا يغني عنه"[٤٩]، وهو ما ينطبق على الفقيه أبي الفضل يوسف بن مسرور (ت٣٢٤هـ/٩٣٦م) الذي لم يكن هناك أسر بالموت منه حسب شهادة

---

(٤٤) ابن منظور، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٩.

(٤٥) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٨؛ اللبيدي، **مناقب أبي إسحاق الجبنياني**، تحقيق، الهادي روجيه إدريس، باريس، ١٩٥٩م، ص٥٩.

(٤٦) اللبيدي، مصدر سابق، ص٥٩.

(٤٧) وهو ما يثبته نص شاهد قبر الفقيه محمد بن محمد بن خيرون المعافري (ت ٣٠١هـ)، انظر،
Roy et Poinssot: Inscriptions Arabes de Kairouan, Institut des Hautes Etudes, Paris,1950, I. A. K , n 93,pp. 184-185.
نقلا عن، نصر الحنزولي، **بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش**، ص٨٢-٨٣.

(٤٨) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١١٢-١١٣.

(٤٩) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٩.

أصحابه، حتى سأله أحدهم عن حبه للموت، فأجاب: " كيف لا أحب الخروج من دار فيها الفتن. . . إلى دار أرجو فيها الاجتماع مع محمد صلى الله عليه وسلم"[٥٠]، كما عمد الفقيه أبو إسحاق الجبنياني (ت ٣٦٩هـ/ ٩٨٠م) إثر وفاة ولده إلى التجمل والتطيب هو وزوجته، وأن يظهر من البشر والفرح ما لم يظهر عليه قبل ذلك[٥١]. ولا ريب فقد سادت تلك النظرة في أوساط الصلحاء والعباد ممن يتمتعون بتكوين نفسي وإيماني خاص، كما أننا لم نعدمها عند بعض الشخصيات التي امتازت برباطة الجأش، كوالي إفريقية العباسي روح بن حاتم المهلبي (١٧١-١٧٤هـ/٧٨٧-٧٩٠م) الذي مات له ولد، وأقبل الناس على تعزيته "فألفوه رخيّ البال ضَاحِك السن"؛ فتوقفوا عَن تعزيته ولما علم بذلك، أنشأ قائلًا:

وَإِنَّا لقوم مَا تفيض دموعنا . . . على هَالك منا وَإِن قصم الظهرا[٥٢]

ورغم تباين النظرة للموت على ذلك النحو، إلا أن الطابع الحتمي للموت كان يفرض نفسه على الجميع، فهو القدر المحتوم والمشترك بين جميع البشر[٥٣].

لا ريب أن ظاهرة الموت التي يعايشها الناس يوميًا كانت تثير مواقف ذهنية وعقائدية مختلفة، لها فاعليتها في صنع الحدث التاريخي. فالموت كان ـ ولا يزال ـ محط اهتمام كل أفراد المجتمع من السلطان إلى الجندي، ومن العالم إلى الفقيه وحتى أبسط أفراد ذلك المجتمع في أقصى بوادي المغرب، كما كان الموت

---

(٥٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٦.

(٥١) اللبيدي، مصدر سابق، ص٢٢.

(٥٢) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ط٢، تحقيق، حسين مؤنس، دار المعارف – القاهرة، ١٩٨٥م، ص٣٥٩.

(٥٣) عبد العزيز بل الفايدة، **"صورة الموت من خلال النقائش اللاتينية"**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، ٢٠٠٨، ع ٨، ص١٠.

أيضا مناسبة لتظاهرات سلمية وتعبدية ضخمة خصوصًا عندما يكون المتوفى مرابطًا صالحًا، أو عالمًا، أو سلطانًا فالحًا. وما يهمنا في هذا الصدد أن المواقف من الموت لا تنتهي بمجرد الدفن حيث يستمر حضورها بعد ذلك في ارتباطات ذهنية واجتماعية، بل وحتى في ارتباطات سياسية بين الميت وذويه، والفقيه وأتباعه، والصالح ومريديه[٥٤]، وهو ما تجلى في علاقة أولئك الأحياء بقبر الميت، فالعلاقة إذًا بين الميت والحي، هي العلاقة بين الناس والمقبرة.

وعليه، فقد شكلتْ تلك العلاقة حيزًا لا يُستهان به من حياة أفراد مجتمع إفريقية خلال الفترة المدروسة؛ لذا أُثيرت في الساحة الفقهية الأباضية مسائل عدة تتعلق بـ "الطريق في المقبرة، ونخلة المقبرة، وغار المقبرة. . . وبئر المقبرة"، واهتم ثلةٌ من عزابةالأباضية وعلمائها بدراسة تلك المسائل وتعليمها من أمثال أبي إسماعيل البصير (ط٩، ٤٥٠- ٥٠٠)[٥٥]. كما يستدل عبر كثير من الإشارات أن **مكانة المتوفى العلمية والدينية بل والكرامية انعكست على مدى جلال قبره ورمزيته وحرمته**، وهو ما ترجمته عدة مواقف اجتماعية وذهنية، نموذج ذلك ما حظي به قبر الصحابي أبي زمعة البلوي (ت بعد ٣٤هـ، ٦٥٤م)من الاحترام والتقديس؛ حتى أن العلماء لم يأمروا بالدفن "في مقبرته خشية مصادفة قبره من جهة احترامه، وخوف وقوع الدفن عليه". وصار من الراسخ في عقلية الإفريقييننأنه من المواضع الموثوقة في إجابة الدعاء لدى الخاصة والعامة؛ وهو ما حدا بالسلطات القائمة فضلًا عن الأفراد والجماعات إليتعهده بالتجديد والبناء والحياطة[٥٦]. ولما كان الفقيه يحيي بن عمر (ت٢٨٩هـ/٩٠٢م) عالمًا ورعًا زاهدًا مستجاب الدعوة؛ فقد حظي قبره

---

(٥٤) محمد مزين، **"الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر " للزياتي"**، ضمن أعمال اللقاء العلمي التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ١٩٨٩، ص١٠٢.

(٥٥) الدرجيني، **طبقات المشائخ بالمغرب**، ج٢، تحقيق، إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤م، ص٤١٢.

(٥٦) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٠.

بجلال عظيم في نفوس الناس؛ حتى أن العمال المكلفين بإنشاء المراكب للخروج لصقلية في أواخر العصر الأغلبي[٥٧] لم يجسروا على هدم قبره ليرفدوا به المراكب أسوة بما فعلوه بالمقابر الأخرى؛ لما كان له ولقبره من الـ "براهين"[٥٨].

كما حظي قبر الفقيه أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٢م)كذلك بمكانة معتبرة؛ حتى أن عامة الناس وتلامذته -وعلى رأسهم الفقيه المالكي أبي عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م)- أقاموا على قبره سنة كاملة إثر وفاته، كماترسخ في ذهنيات عوام القيروان أن القابسييحاجج الملائكة عن كل من يُدفن بمقبرته، ويبدو أن تلك القناعات لم تقتصر على العوام وإنما شملت الفقهاء والعلماء والصلحاء ـ حتى فترات لاحقة لفترة الدراسة ـومنهم أبي يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني (ت٦٢١هـ/١٢٢٤م) الذي دفن "تحت رجلي القابسي" لهذا السبب[٥٩].

أما في الوسط الشيعي[٦٠]، فقد كره أئمته ملازمة القبور مهما كانت مكانة المقبور وحيثيته؛ لما يورثه ذلك من الحزن والضعف، فضلا عن أن ذلك الفعل لا يقدم عليه إلا الجهلة، لذا أوصى المنصور بالله الفاطمي

---

(٥٧) ينسب الأغالبة إلى والي إفريقية العباسي الأغلب بن سالم التميمي (١٤٨-١٥٠هـ/٧٦٥-٧٦٧م)، الذي نجح ابنه إبراهيم الأغلبي بمساندة الدولة العباسية في تأسيس أسرة حاكمة حكمت إفريقية في الفترة من ١٨٤هـ ـ ٨٠٠م حتى استيلاء أبي عبد الله الشيعي، داعي الفاطميين عليها إثر هزيمته للأغالبة في معركة الأربس عام٢٩٧هـ/٩٠٩م. لمزيد من التفاصيل عن دولة الأغالبة انظر، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ١٩٨٤، ص١٢١-١٣٥.

(٥٨) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ص ٤٩٠، ٤٩٤-٤٩٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٠.

(٥٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٣.

(٦٠) يقصد بالوسط الشيعي الفئات الاجتماعية ـ المنتمية إلى مختلف الطبقات ـ التي اعتنقت المذهب الشيعي والتي تأثرت بمبادئه وأفكاره وأفعال أئمته.

(٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٥-٩٥٢م) ابنه المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٦م) أن يدع ملازمة قبره، والاختلاف إليه، لأن ذلك "يبعث الحزن، ولا يؤدي إلى غاية من الحزم، وإنما يفعله الجهال من الرجال"[٦١].

وبالمثل اشتهرت بعض مقابرالوسط الأباضي[٦٢]، بالبركة والقداسة لما قبر فيها من المشايخ البررة، من ذوي الورع والعلم والتقى، ومنها: مقبرة أجلو الغربية، ومقبرة بني يراسن في جربة[٦٣]؛ حتى أن أهل الفضل كانوا "... يتمنون على الله أن يقبروا فيهن"[٦٤].

امتد كذلك جلال صاحب القبر ليشمل المدينة المدفون فيها؛ ومن ثم نجد أن مدنًا بإفريقية قد حازت أفضلية عما سواها من المدن؛ بسبب من دفن فيها من الصحابة والتابعين والصالحين، فمن فضائل القيروان[٦٥] التي تمتاز بها على سائر مدن المغرب أن بها قبر أبي زمعة البلوي صاحب رسول الله[٦٦]،

---

(٦١) القاضي النعمان، **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق، الحبيب الفقي وآخرين، دارالمنتظر، بيروت، ١٩٩٦م، ص١٣١.

(٦٢) يقصد بالوسط الأباضي الفئات الاجتماعية ـ المنتمية إلى مختلف الطبقات ـ التي اعتنقت المذهب الخارجي الأباضي والتي تأثرت بمبادئه وأفكاره وأفعال مشايخه وفقهائه، وتركزت غالبا في أماكن محددة من إفريقية كطرابلس وجبل نفوسة وجربة.

(٦٣) جربة، جزيرة ناحية إفريقية، تقع قرب مدينة قابس وأهلها بربر على المذهب الخارجي. انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ص١١٨.

(٦٤) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٦٤٦.

(٦٥) القيروان، أول حاضرة إسلامية بالشمال الإفريقي، بناها والي إفريقية عقبة بن نافع عام ٥٠هـ إلى ٥٥هـ في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان. انظر: ياقوت الحموي: مصدر سابق، ج٤، ص٤٢٠-٤٢١.

(٦٦) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١١-١٢. ثم أضاف الدباغ أنه لا يعلم أن شَعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضع من المواضع إلا بالقيروان، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما حلق في حجة الوداع أخذ أبو زمعة من شعره وجعله في قلنسوته فلما مات بالقيروان دفن معه ذلك الشعر وهذه "مزية لأهل القيروان عظيمة ومنفعة جليلة لا يشاركهم فيها غيرهم من بلاد المغرب حيث ضمت أرضهم بعض جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم". انظر، الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٣.

وبذلك أصبحت القيروان تجسد المعاني الإسلامية المتعلقة بالتراث نظرًا لما بها من مقابر الصالحين[٦٧]. حازت كذلك مدينة قابس[٦٨] مكانة معتبرة في نفوس الناس لوجود قبر أبي لبابة صاحب رسول الله بها؛ ومن ثم دأب الناس على تعهده بالزيارة، وفي الحائط عند رأس القبر لوح مكتوب فيه: "هذا قبر أبي لبابة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجميع من بقابس وسائر عملها يقولون ذلك وينقلونه نقلًا متواترًا"[٦٩].

اعتبرتْ أوساط الصالحين أن الموت خلاصًا؛ لذا نظرتْ إلى القبر باعتباره مأمنًا من همزات الشياطين ومكائد الدنيا[٧٠]، التي تعد من وجهة نظرهم سجنًا للمؤمنين[٧١]، مؤكدين أنه لا راحة إلا في القبر[٧٢]. وفي إطار ذلك المنحى المدَعَّم باحتضان مجتمع إفريقية للصلاح بشكل لافت للانتباه؛ يمكننا القول بحضور ملموس للقبر في أدق تفاصيل الحياة اليومية؛ وهو ما لعب دورًا في تشكيل وصياغة معتقدات وذهنيات وسلوكيات الأفراد والجماعات؛ ففضلًا عن كون القبر مكانًا للاعتبار، فقد شكل أيضًا مادة

---

(٦٧) محمد صبري محسوب، **"القيروان عند الجغرافيين المسلمين، قراءة وتحليل"**، ضمن أعمال ندوة "موقع القيروان في الثقافة الإسلامية من تاريخ التأسيس إلى اليوم – الدين والأدب"، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة الزيتونة، ٢٠١٠، ص٥٢٧.

(٦٨) قابس مدينة كبيرة قديمة من مدن بلاد إفريقية وتعد من بلاد الجريد بينها وبين البحر ثلاثة أميال اشتهرت بالحرير. انظر، الحميري، **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت ١٩٨٠م، ص٤٥٠.

(٦٩) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٢.

(٧٠) البغطوري، **سير مشايخ نفوسة**، تحقيق، توفيق عياد الشقروني، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠٠٩م، ص١١٩؛ الوسياني، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٥؛ الشماخي، **تراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس الهجري**"، تحقيق ودراسة، محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، م ٣٠، تونس، ١٩٩٥م، ص١٥١.

(٧١) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص١٦٦.

(٧٢) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٢.

رئيسية للوعظ والإرشاد، والدعاء، والرؤى، والوصايا، والأقوال المأثورة، والتمثلات، والمراثي.

كان القبر ـ ولا يزال ـ في مجتمع إفريقية مكانًا **للاعتبار والأسى** إزاء ما يقترفه الإنسان في حياته من الخطايا والذنوب[٧٣] لذا حرص كثيرون على حضور الدفن والاتعاظ بما يؤول إليه مصير الإنسان من البلى تحت التراب[٧٤].

دأب القضاة والفقهاء والعُبَّاد كذلك على حضور الجنائز ـ وهي مناسبات تعبدية جليلة ـ **وإلقاء مواعظهم على الناس عند القبور** وتذكيرهم بالآخرة وأهوالها، وهو ما كان يفعله عبد الخالق المتعبد (ت٢٢٠هـ/٨٣٥م)[٧٥] والقاضي عبد الله بن طالب (ت٢٨٣هـ/٨٩٦م) الذي كان يعظ الناس ويذكرهم بالموت وشدة هوله وظلمة القبر[٧٦]. وبالمثل كان عدد من الفقهاء والصلحاءيتخذ من القبور التي حوت رفات الوجهاء والأعيان وأصحاب السلطان مادة للوعظ والإرشاد وتنبيه الناس على مآلهم تحت التراب وبين جنبات القبور، ومنهم بكر بن حماد (ت٢٩٦هـ/٩٠٩م)[٧٧]. كما حرص البعض الآخر على تضمين شاهد قبره أبيات شعرية غرضها وعظ الناس وتذكيرهم بأن التقى والعمل الصالح هما ما يتبقى للإنسان في قبره[٧٨].

لم تخل مواعظ فقهاء الأباضية وصلحائهم من التأكيد على ضرورة أن يستعد الإنسان لما بعد الموت بأن يأخذ "من مرتحله إلى منزله" أي يتزود من

---

(٧٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣٣.
(٧٤) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣.
(٧٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٦.
(٧٦) المصدر نفسه، ج١، ص٤٧٩.
(٧٧) المصدر نفسه، ج١، ص٥٠٩، ج٢، ص٢٤.
(٧٨) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٤.

الدنيا الفانية بالعبادة وفعل الخير استعدادًا للآخرة [٧٩]، ومن أهم ما كان يعظ به فقهاء الأباضية، حثُ الناس على قيام الليل اتقاءً "لوحشة القبور"[٨٠]. وعلى النهج ذاته سارت صالحات النساء من الأباضية، كزيدية ابنت عبد الله الملوشانية (ق٣هـ/٩م)التي كانت تعظ بنات جنسها إذا اجتمعن لعمل الصوف، وتزجرهن عن الغناء، وتذكرهن أمر الموت والقبر والمعاد والحساب[٨١].

شَكَّل القبر أيضا أحد المضامين الأساسية في **الدعاء** سواء للحي أو للميت، للنفس أو للغير، ومما ورد في هذا الصدد دعوة أبي زكريا يحيي ويجمَّن للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٦٧-٢١٧هـ/٧٨٤-٨٣٢م) ـ نظرًالإقطاع عبد الوهاب أرضًا بالساحل لألف رجل من النفوسيين، الذين تركوا جبل نفوسة؛ تأمينًا لهم وخوفًا مما يمكن أن يعتريهم من التشتيت ـقائلا: "نضر الله وجهه وقدس روحه وبرد ضريحه"[٨٢]. وتعاطيًا مع مكانة سحنون ابن سعيد (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) العلمية والاجتماعية في مجتمع إفريقية؛ دأب البعض على الدعاء له بعد مماته بأن يقدس الله روحه وينير ضريحه[٨٣]. ويبدو أن هاجس الإحساس بوحشة القبر كان مهيمنًا على الصلحاء والعُبَّاد؛ مما دفعهم إلى تضمين تضرعهم إلى الله ودعائهم لأنفسهمأن يؤنسهم الله في قبورهم مثلما آنسهم في حياتهم ووفقهم لطاعته وذكره عز وجل، ومن هؤلاء سعيد البكاء المتعبد (ت٢٤٩هـ/٨٦٣م)[٨٤]. كما نقلت المصادر ما ورد على لسان الفقيه الأباضي أبي

(٧٩) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨٠.

(٨٠) البغطوري، مصدر سابق، ص٦٤.

(٨١) الشماخي، مصدر سابق، ص٢٦٩.

(٨٢) الوسياني، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٢.

(٨٣) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٥.

(٨٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٠؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١١٣.

عبد الله محمد بن بكر (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) ألا يجعل قبره مشهورًا؛ فأجاب الله دعاءه، ومات في غار كان يتعبد فيه، ودفن في مقبرة أمامه [٨٥].

تشهد نصوص الفترة كذلك على حضور ملموس للقبر في **رؤى ومنامات الصالحين**، على اختلاف انتماءاتهم المذهبية، معبرًا في الأغلب الأعم عن فضل وصلاح أصحاب تلك القبور، ومؤكدًا أنهم على الطريق الصحيح، سواء في ذلك مسلك كل منهم داخل مذهبه، أو مسلك أتباع كل مذهب إزاء المذاهب الأخرى؛ وهو ما يعكس حتمًا الاختلافات المذهبية التي عجتْ بها بلاد المغرب خلال الفترة المدروسة سواء في ذلك الانشقاقات داخل المذهب الواحد، أو الصراع بين المذاهب المختلفة، كما يعكس أيضًا رمزية كل صاحب قبر، وأثره العلمي والديني والاجتماعي. ففضلًا عن أن رؤى ومنامات الصالحين كانت إحدى الطرق التي عُيِّنت بها بعض المقابر القديمة ونسبتها إلى أصحابها- ومن ذلك قبر أبي زمعة البلوي [٨٦] - فقد تعددت كذلك رؤى أقطاب المذهب السني بإفريقية معبرة عن جهودهم في ترسيخ المذهب المالكي في المجتمع، ومن ذلك رؤيا البعض للنبي مقبورًا والناس يجعلون على قبره التراب، والفقيه سحنون بن سعيد ينبشه، فعُبِّرت بأن الناس يدفنون سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسحنون يُحييها [٨٧]، تنويهًا بدور سحنون المشهود في تدعيم المذهب المالكي إزاء المذاهب المنافسة، كالمذهب الحنفي والمعتزلي وغيرها من المذاهب الأخرى.

تتالت رؤى ومنامات فقهاء المالكية المتعلقة بالقبور؛ لتعبر عن

---

(٨٥) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨١.

(٨٦) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٨-٩٩.

(٨٧) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٢-٣٦٣؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٣-١٠٤.

صلاحهم ونفعهم لمجتمعهم سواء في الدنيا أو في الآخرة، ومن ذلك رؤيا تكررت تخص قبري البهلول بن راشد (ت١٨٣هـ/٧٩٩م) وجبلة بن حمود الصدفي (ت ٢٩٩هـ/٩١٢م) وفحواها أن أويس القُرَني أتى لزيارة القبرين، وأنهأكد للرائي أنه سيدخل في شفاعتهما من المقبورين في جوارهما يوم القيامة "مثل ربيعة ومضر"، وهو ذاته ما أُثر عن أويس القُرَني، أي أنهما يعدلان في الصلاح مكانة أويس القرني وهي من الرؤى التي كان يتم تداولها في مجالس العلماء والقضاة، كالقاضي عبد الله بن هاشم (ت٣٦٣هـ/٩٧٤م) [٨٨].

وفي إشارات بالغة الدلالة، تأتي رؤيا سعدون الخولاني (ت٣٢٤ أو٣٢٥هـ) لصاحبه أبي جعفر القمودي (ت٣٢٤هـ/٩٣٦م) أثناء مرضه، وفحواها أنه رأى في منامه قصورًا في طرف المقابر مملوءة بالجوهر والياقوت، وفيها جوارٍ لم ير مثلهن وقبابًا وأبوابًا فتحت في السماء يظهر منها نور عظيم؛ استعدادًا "للعروس الذي يخرج غدًا من سوسة"، فمات القمودي بالفعل من غده وودعه أصحابه. واستكمالًا للمعنى ذاته رأى أحدهم في منامه أبا جعفر الأربسي (ت٣٢٣هـ/٩٣٥م) فسأله عن حال القمودي، فأجاب: أنه" ما أقام في قبره غير ليلة واحدة ثم رفع. . . كالبرق" [٨٩]. وبالمثل رأى أبو القاسم عبد الوهاب بن نصر المتعبد (ت٣٣٠هـ/٩٤٢م) في رؤياه أن نورًا وضياءً عظيمًا بين قبري والديه؛ لذا أوصى أن يدفن بينهما [٩٠]. ولا ريب فتلك دلالات كرامية تشيد بصلاح أولئك المقبورين وتظهر مدى رضا الله عنهم. وفي السياق ذاته تأتي رؤيا أبي الفضل الغدامسي (ت٣٤٩هـ/٩٦٠م) لمعلمه الجليل المعروف بالباجي، والتي أكدت على أن الباجي كان يشعر بكل ما صُنع به بعد موته من الغسل والكفن والصلاة والدفن بالقبر، وأن ملائكة القبر أتوا إليه وذهبوا عنه

(٨٨) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٧١، ج٢، ص٢٧٩.

(٨٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣١.

(٩٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧١.

ولم يسألوه عن شيء؛ لأنه بمجرد أن رآهم، انطلق لسانه بقراءة سورة "يس" وهي قلب القرآن[٩١]. وهو ما نجد له نظيرًا في عدة رؤى تخص الفقيه المالكي أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) التي أكدت على صلاحه، فمنها رؤيا تفيد بأن رجلًا خرج من قبره مخبرًا أن له في العذاب أربعين سنة فلما دُفن القابسي بجواره غُفر له ولجميع من في المقبرة[٩٢].

تفيد رؤيا أخرى متعلقة بقبر القابسيباستمرار دوره في إعادة ترسيخ المذهب المالكي، والدفاع عن السنة على يد تلميذه الشهير أبي عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ/١٠٣٩م)، الذي رأى أستاذه يطلب منه أن يكف عن المكوث عند قبره بعد أن أقام سنة كاملة مع من أقام، وأن يدخل القيروان ويستكمل تعليم أهلها ويفقههم في الدين، كما دعا له أن ينير قبره مثلما أنار قبر القابسي بمكوثه عنده سنة[٩٣]. ولا ريب أن تلك الرؤيا تحمل في طياتها معالم الفترة الحرجة التي كانت تمر بها بلاد المغرب في عهد بني زيري الصنهاجيين[٩٤]، وتشير إلى دور بعض رجالات المالكية في محاولة إحياء المذهب السني المالكي من جديد، وترسيخه ليس فقط بإفريقية بل في المغرب كله، وهو ما يعد إرهاصًا لقيام دولة المرابطين السنية على يد تلامذته من بعده، وعلى رأسهم تلميذه أبي عمران الفاسي، الذي لعب دورًا مهمًا في قيام تلك الدولة

(٩١) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٤١-٤٤٢.
(٩٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٥.
(٩٣) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٥.
(٩٤) شكل بنو زيري الساعد الأيمن للفاطميين خلال حكمهم لبلاد المغرب، وعندما قرر الفاطميون الرحيل إلى مصر عام ٣٦٢هـ/٩٧٢م؛ تركوا حكم إفريقية في أيديهم كحكام تابعين وظلوا على ذلك حتى عهد المعز بن باديس الذي أعلن استقلاله بحكم إفريقية عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م وقد ظلوا يحكمون إفريقية إلى أن انحصر ملكهم في المهدية بفعل الغزوة الهلالية وسيطرة الأعراب على الأمر حتى استيلاء الموحدين على إفريقية عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م. لمزيد من التفاصيل عن دولة بني زيري، انظر، عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص١٨٥- ١٩٠.

بشكل مباشر[٩٥].

وبالمثل، فقد قام الأباضية بتوظيف رؤيا القبورلتأكيد صلاحهم وأنهم على الصواب، وأنهم الفرقة الناجية التي ستنال حسن الثواب في الآخرة، وهو ما تلح عليه رؤيا لعبد الرحمن بن معلى (ط١١، ٥٠٠-٥٥٠ه) رأى فيها كأن القيامة قد قامت، والناس من قبورهم ينتشرون، ومنهم أناس وجوهم نضرة، ثيابهم بيض، على قدر كبير من الحسن والجمال، قد خرجوا من مقبرة بتجديت، فإذا بهم"العزابةالوهبية"[٩٦]. وهو ما يشي ليس فقط بالصراع المذهبي بين الأباضية والمذاهب الأخرى المخالفة، بل بالانشقاق المذهبي داخل الأباضية، وتحولهم إلى وهبية ونكارية[٩٧]وغيرها من الانشقاقات الأخرى التي عانوا منها.

كان القبر أيضًا ركنًا أساسيًا **في الوصايا**، التي حرص المغاربة بوجه عام على إنفاذها، لاسيما الأباضية الذين تشددوا في إنفاذ وصية الميت، خاصة ما يتعلق بدفنه[٩٨]. ومن تلك الوصايا، الوصية بعدم الدفن في مدينة بعينها، وهو ما فعله الفقيه المالكي هشام بن الربيع التميمي (ت٣١٨هـ/٩٣٠م) الذي ناله كثير من الاضطهاد على يد الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (٢٩٧هـ/٩٠٩م - ٣٢٢هـ/٩٣٤)؛ لذا أَوصَى أن لا يُدفن بالمهدية حاضرة الشيعة، فلما مات

---

(٩٥) عن جهود القابسي وأبي عمران الفاسي في قيام دولة المرابطين، انظر، عبدالقادر زمامة، **"أبو عمران الفاسي الغفجومي أول مفكر في تأسيس دولة المرابطين"**، ضمن أعمال ندوة، " أبو عمران الفاسي، حافظ المذهب المالكي"، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ٢٠٠٠، ص٣٩٣ – ٤٠٦؛ خالد حسين محمود، **"الجانب السياسي في حياة الفقه أبي عمران الفاسي"**، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة، ع ٥٩، ٢٠١٢، ص ١١٥– ١٦٥.

(٩٦) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٥٧-٤٥٨.

(٩٧) انظر تفصيلًا لذلك عند، محمد عبد العمر، **الأباضية النكار في المغرب الأوسط من القرن الثاني حتى السابع الهجري**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤.

(٩٨) البغطوري، مصدر سابق، ص٣٤؛ الوسياني، مصدر سابق، ج١، ص٤٦١.

نقل إلى القيروان فدفن بها[٩٩]، وهو أمر أجازه الفقهاء[١٠٠].

دأب كثيرٌ من الناس أيضًا على الوصية بالدفن في جوار الصلحاء؛ لتعمهم رحمتهم وينتفعون بشفاعتهم، ومنهميوسف بن حسون المقرئ (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) الذي دفن بإزاء البهلول بن راشد بناءً على وصيته[١٠١]، والفقيه أبي يوسف يعقوب بن ثابت الدهماني (ت٦٢١هـ/ ١٢٢٤م) الذي أوصى بأن يدفن في جوار القابسي[١٠٢]، فضلاعمن كان يوصي بالدفن بين قرابته، كأبي القاسم عبد الوهاب بن نصر المتعبد (ت٣٣٠هـ/ ٩٤٢م) الذي أوصى جماعة من أهل العلم بأن يدفنوه بين قبري والديه[١٠٣].

كما أوصى البعضبأن تدفن معهم أشياء على سبيل الحجة والشفاعة ونيل البركة، وتدعيمًا لموقفهم ونجاة لهم من حساب القبر، فمنهم من أوصيأن تدفن معه بقبره إجازته العلمية[١٠٤]، ومنهم من أوصيأن تدفن معه شهادة أصحابه بحقه، تتضمن إقرارهم بخيره وحسن عبادته وعلمه ودوره في تعليم الناس العلم والسير[١٠٥]، ومنهم من أوصى أن تدفن معه في لحده حصير كان يسجد عليها في سواد الليل[١٠٦]، وفي السياق ذاته تمنى أبو جعفر القصري

---

(٩٩) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج١، ط٣، تحقيق، ج. س كولان وليفيبروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٩٥.

(١٠٠) ابن أبي زيد القيرواني، **النَّوادر والزِّيادات على مَا في المدَوَّنة من غيرها من الأُمهاتِ**، ج١، تحقيق، عبد الفتّاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٩، ص٥٧٣.

(١٠١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠٨.

(١٠٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٣.

(١٠٣) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧١.

(١٠٤) الونشريسي، مصدر سابق، بيروت، ١٩٨١م، ج١، ص٣١٩.

(١٠٥) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٥٤٠؛ البغطوري، مصدر سابق، ٩٣؛ الشماخي، مصدر سابق، ص١٣٠.

(١٠٦) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٨١.

(ت٣٢٢هـ/٩٣٤م) لو أن السلف كانوا يدفنون معهم كتبهم؛ لأوصى أصحابه أن يدفنوا معه كتابه في معجزات الرسول [١٠٧]، كما أوصت أم ربيع القطان (ت٣٣٤هـ/٩٤٦م) بأن يدفن معها بقبرها شعر كثير كانت قد جمعته مما كان يحلقه ولدها من جانب معين من وجهه، وقد اتفق أن ضُرب ولدها في ذلك الجانب من وجهه ونال حتفه إثر انضمامه ـ كغيره من مشايخ السنة ـ للخوراج بزعامة أبي يزيد النكاري في مواجهاته مع الفاطميين الشيعة [١٠٨].

شملت كذلك وصايا بعض الصلحاء والعباد تحديد نوع الكفن الذي يُكفن فيه تحريًا للحلال، نموذج ذلك وصية أبي الحسن بن دراس المتعبد (ت٢٨٣هـ/٨٩٦م) بتكفينه في جبة صوف وكساء ختم فيهما القرآن ثمانية آلاف ختمة [١٠٩]، وهو المسلك ذاته لعبد الوهاب بن نصر (ت ٣٣٠هـ/٩٤٢م) [١١٠]. كما تضمنت الوصايا أيضًا تحديد طريقة الدفن، وهو ما فعله أبو الفضل يوسف بن مسرور (٣٢٤هـ/٩٣٦م) الذي أوصى بأنيسنوا عليه التراب سنًا ولا يزيدوا على تراب قبره تراب غيره، لأنه رأى في بعض الآثار أن ذلك يؤدي إلى عدم سماع الميت للأذان وعدم رؤيته للزوار [١١١]، وهو ما ينطبق على وصية أبي القاسم عبد الوهاب بن نصر المتعبد (ت٣٣٠هـ/٩٤٢م) [١١٢]. كما أوصى آخر بأن يُبنى على قبره وقبر والده "حجرة بالحجر والجير" فضلا عن وضع شاهد منقوش من الحجر عند

(١٠٧) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢.

(١٠٨) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٧؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٣٧؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٣١.

(١٠٩) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٨١.

(١١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٧١.

(١١١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٤١.

(١١٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ص١٥-١٦، ١٨.

رأسيهما[١١٣]. وفي سياق آخر أوصى أحد الأبدال المعروف بأبي عبد الله محمد ابن أبي حميد السوسي (ت٢٩٣هـ/٩٠٦م) أنه إن مات يرموا على قبره "الكناسة"[١١٤]. ولعل في ذلك نوع من تحقير الذات وهو من المبادئ التي قامت عليها تجربة التصوف والولاية.

وانطلاقًا من أهمية ومكانة القبر في الحياة الاجتماعية؛ فقد كان له حضور ملموس في **تمثلات الفرد والجماعة في مجتمع إفريقية**، عبر تصورات ذهنية صاغتها أحداث ومواقف معاشة. ولسنا بحاجة إلى التأكيد على ما للتمثلات الاجتماعية من أهمية في حياتنا؛ لما تعطيه من معنى لأفعالنا وتصرفاتنا[١١٥]، فهي شكل من أشكال المعرفة المتداولة والحس المشترك[١١٦].

فتأسيسًا على أن القبر مكان للدفن ونهاية الحياة الدنيا، فقد تم التمثل به في بعض الأحيان للتعبير عن مكان جمع الأشياء وحفظها لحين الحاجة إليها، وهو ما يفصح عنه حوار دار بين أبي محمد التغرميني وأم زعرور الجيطالية (ق٣هـ/٩م)، وهو بسبيل اختبار علمها قبل الإقدام على زواجها، فمماعبرت به أم زعرور: أن "المزرعة هي الدنيا، وأما الحارثونفالناس. . . ، والحصَّاد ملك الموت، وأماالأندر فالقبور. . . "[١١٧]. وفي السياق ذاته تم تمثل القبر على أنه مكان الراحة والأمان بعد حياة مثقلة بالأعباء، وهو ما عبر به

---

(١١٣) القاضي عياض وولده، **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تحقيق، محمد بن شريفة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠م.

(١١٤) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٥٠ – ٢٥١.

(115) Denis (J): representation sociale ,phenomène ,concept ,théorie ;puf 2ème ed, Paris1984,p. 22.

(116) Norbert (S): dictionnaire usuel de psychologie; Paris 1980,p. 315.

(١١٧) البغطوري، مصدر سابق، ص١٤٤.

زكريا بن أبي مسور بن وجين اليراسني (ط٨، ٣٥٠-٤٠٠ه) عند موت أبيه قائلًا: "مثل أبي كمثل حمولة حملت حملا ثقيلا موقرًاوقد رأت المكان الذي يحط به عنها حملها فأسرعت لطلب الراحة"[١١٨].

وفي إطار آخر تمثل الأباضية بالقبر في بعض الأحيان للتعبير عن حال تراثهم المخزون في خزائن كتب أهل السنة بأنه: "نعم الرجل في قبر سوء" وهو مارد به فرج بن نصر النفوسي المعروف (بنفاث) [١١٩] على الخليفة العباسي ببغداد معرِّضًا قاصدًا ديوان جابر بن زيد (ت٩٣ه/٧١٢م) المخزون في خزانة الخليفة ولا ينتفع به أحد[١٢٠]. وبالمثل عبر الدرجيني عن أفول نجم المذهب الأباضي خلال القرن السادس الهجري، وهو بصدد التنويه بدور أبي عمار عبد الكافي (ط١٢، ٥٥٠-٦٠٠) في محاولة إحيائه، قائلًاعنه: "تدارك المذهب قد أُقبر فأنشره نشورا، ونوه به وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا"[١٢١].

لم تكتفِ **قصائدُ الرثاء** كذلك بتصوير حوادث الموت الفردية، وتناول حقيقة الموت والحياة، وغيرها منالمعانيالفلسفية العميقة [١٢٢]، بل زخرتْ كذلك بصور عدة ومتفاوتة للقبر، تَحكَّم في رسمها وصياغتها علاقة الراثي بصاحب القبر تارة، ومنزلته الدينية والعلمية والأدبية في نفوس من فقدوه تارة أخرى. فعلى نحو عام صُور القبر على أنه "دار البلى" والوحدة

(١١٨) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص١٦٦.

(١١٩) خرج نفاث على الإمام أفلح بن عبد الوهاب وبعد فشله في مواجهته عسكريا فر إلى بغداد، واتفق أن أُشكلتْ مسألةٌ على الخليفة، فاحتاج من يجيبه عنها فتصدى نفاث وأعلن رغبته في إجابة كل ما يسأل عنه الخليفة، وبالفعل سمح له بحضور مجلسه. لمزيد من التفاصيل عن حركته وخروجه إلى بغداد، انظر، الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص٧٧-٨١.

(١٢٠) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص٨١.

(١٢١) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٨٥.

(١٢٢) القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق، محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص٣.

والوحشة[١٢٣]، المفرقة بين الأصدقاء والخلان والأحبة، وهو ما عبر به أبومحمد ماكسن بن الخير (ط١٠، ٤٥٠-٥٠٠هـ) في رثائه لأبي العباس أحمد ابن محمد ابن بكر (ت٥٠٤هـ/١١١١م) قائلا:

كفى الخليلين أن الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالي[١٢٤]

وهو ما نجد له نظيرًا في ترجمة الشاعر القيرواني محمد بن عبدون الوراق (ق ٤هـ/ ١٠م) الذى أصابه الجنون بسبب وفاة جارية له كان بها ولعًا؛ حتى أنه كان يهيم على وجهه ويركن إلى قبرها وينشد:

قبر بسوسة قد قبرت به النهى أدرجت قلبي فى مدارج لحده
أسكنته سكنى ورحت كأنني في الأرض لا بشرا أرى من بعده[١٢٥]

وعبر الشاعر الحصري القيرواني (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م)كذلك عن فاجعة حرمانه من ابنه بعد دفنه، قائلًا:

أهم بنبش قبرك الطيب الثرى لعلي أستشفي وإن حرم النبش
كأني وقد أودعتك القبر طائر كسير جناحٍ لا فراخ ولا عش[١٢٦]

---

(١٢٣) ومن الأبيات التي تعبر عن ذلك المعنى:

كأني بالبكـاء علي فاش وقد حملوا بجثتي السريرا
إلى دار البلى حملا سريعا وينصرفون عن قبري نفورا

انظر، المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٣.

(١٢٤) البيت للنابغة الذبياني يرثي أخاه، انظر، الوسياني، مصدر سابق، ٤٢١، هامش (٤)؛ الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤٥.

(١٢٥) ابن رشيق، **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**، جمعه وحققه، محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦، ص ٣٩٤.

(١٢٦) نقلًا عن سيد أحمد صقر، **"من أدبنا المجهول، شاعر يرثي ولده"**، ضمن كتاب مقالات العلامة المحقق اللغوي الأديب السيد أحمد صقر، جمع، أحمد بن موسى الحازمي، دار التوحيد للنشر، الرياض، ٢٠٠٩، ص ١٥٩.

ورغم خسارة الأحبة ومرارة الفقد[١٢٧] فقد صور البعض الآخر القبر بالمكان العطر الطيب المبتهل والمتلألئ بنور من قُبر فيه؛ وهو ما يشي حتمًا بمنزلة المقبور، ومن ذلك المعنى الأبيات التي رثى فيها الفقيه أبو زكريا يحيي ابن علي الفقيه القيرواني أبا محمد عبد الله بن أبي زيد (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) قائلًا:

كل البسيطة بسط الحزن قد بسطت وقبره بسنا أنواره ابتهلا

وكيف لا وولي الله حل به قطب المشايخ نور للهدى اكتمل[١٢٨]

وفي السياق ذاته، أجمع كل من حضر جنازة وصبيحة قبر المؤدب محرز ابن خلف (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م) على رائحة المسك التي عبقت من قبره وملأت الموضع؛ وهو ما دفع الشعراء إلى وصف ذلك في الأبيات التي رثوه بها ومنها ما قاله محمد بن عبد الله قاضي ميلة:

ثرى يسري إلى الزوار منه نسيم يغمر المتأملينا

يطيب ترابه من غير طيب كأن المسك حل به دفينا

وقال أيضا أبو عبد الله محمد بن أحمد الخياط الواعظ:

نفحت إلينا من ثراك لطيفة شهدت بأن قبرك عنبر[١٢٩]

صور البعض الآخر القبور بأنها أطفأت نور العلم والمعرفة بمن حوتهم من الأئمة والعلماء؛ وهو ما أثر سلبًا على طلبتهم ومريديهم وعلى قصور

---

(١٢٧) القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، ص٣٣١؛ الداعي إدريس، **تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب**، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، ج٥، تحقيق، محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٣٩.

(١٢٨) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١١٨.

(١٢٩) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص٩٣- ٩٤.

وتراجع الحركة العلمية والوعي الديني بوجه عام. ومما قيل في هذا المعنى أبيات لأحمد ابن أبي سليمان (ت٢٩١هـ/٩٠٤م) يرثي فيها سحنون بن سعيد (ت٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) وابنه محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م) قائلا:

ألا فابك للإسلام إن كنت باكيا ... لحبل من الإسلام أصبح واهيا

تثلم حصن الدين وانهدر ركنه ... عشية أمسى في المقابر ثاويا

ويا قبر سحنون وقبر محمد ... أظلكما الله الغمام الغواديا[١٣٠]

وفي تعبير بالغ الدلالة عما نال طلبة الفقيه أبي بكر محمد المعروف بابن اللباد (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) من حزن وضرر إثر دفنه ـ لاسيما مع فقدانهم لدوره المشهود في مجابهة الشيعة خلال تلك الفترة، التي عانت صراعًا عاتيًا بين المذهب الشيعي والمذهب المالكي من أجل البقاء ـ قال أبو محمد بن أبي زيد مخاطبًا لقبر ابن اللباد:

حويت يا قبر أجيال العلوم وقد ... أطفيت عنا سراجًا كان نورنا

يا قبر إن لم تكن ترثي لميتته ... ألا رثيت لنا إذ عنه تبعدنا[١٣١]

وقد أكد آخرون على المعنى ذاته، ومنهم محمد بن أبي داوود – أحد أصحاب محمد بن سحنون، ق٣هـ/٩م – قائلًا: قل للمنية بعد موت محمد تكسو الخليقة بعده إجلالها

يا صاحب القبر الذي لبس البلى ... ورثت نفسي همها وخبالها

لما رأت تعطيل مسجدك الذي ... بإزاء قبرك غالها ما غالها[١٣٢]

---

(١٣٠) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ص ٤٥٥، ٤٥٨.

(١٣١) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٠.

(١٣٢) القاضي عياض، المدارك، ج١، ص٤٣٢.

وظفَ بعضُ الفقهاء والعلماء والشعراء القبرَ في أبياتهم الشعرية، التي عرضتْ للتشفي في الظلمة وأصحاب الجاه والسلطان، على اعتبار أن القبر هو مكان ذل هؤلاء، الذين أذلوا رقاب العباد في الدنيا، وهو نوع من التنفيس عما يجيش في الصدور من مرارة الخضوع لأولئك الظلمة، ومن ذلك أبيات من قصيدة طويلة لأحمد بن أبي سليمان (وهو من الناطقين بالحكمة، ت٢٩١هـ/٩٠٤م) [١٣٣] جاء فيها:

وكم رأينا من عزيز مشرف يبيت مقـرًا في القباب ممهـــدًا
فجته المنايا وهو في حين غفلة فأضحى ذليلًا في التراب موسدًا [١٣٤]
وكم ملك عظيم ذي اختيال أعــد خـزائنا وبنى قصـــورا
ومن ذاك التملك والتعالي وسكنى قصره، سكن الحفيرا
وأضجع في التراب بلا مهاد بضيق اللحد منجدلا عفيرا [١٣٥]

ثالثًا: توزيع المقابر وتموضعها بإفريقية:

أكدتْ الأبحاثُ والدراسات التي خصصت لتأسيس القيروان ـ كأول حاضرة عربية إسلامية في بلاد المغرب العربي ـ على افتقادها لمعلومات تاريخية دقيقة عن خطط المدينة وشوارعها وأزقتها زمن البناء [١٣٦]؛ لذا رجحتْ تلك الدراسات أن توزيع خطط القيروان كان على أساس قبلي، مثلما كان الحال في الفسطاط [١٣٧]، وغيرها من مدن الأمصار كالكوفة والبصرة؛ حيث وُزعتْ

(١٣٣) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٥.
(١٣٤) المصدر نفسه، ج١، ص٥٠٩.
(١٣٥) المصدر نفسه، ج١، ص٥١٢.
(١٣٦) طاهر مظفر العميد، **" تأسيس مدينة القيروان"**، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، مج١، ع٢١، ١٩٧٧، ص٣٤٥.
(١٣٧) حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، ق١، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٤، ص٥٢؛ طاهر مظفر العميد، مرجع سابق، ص٣٤٤.

خططُ تلك المدن على القبائل، وتُركتْ الحرية لكل قبيلة في تقسيم خطتها، واتخاذ مقبرتها الخاصة [١٣٨]. ومما يعضد ذلك ورود أسماء لبعض المقابر بالقيروان منسوبة لقبائل بعينها، كمقبرة باب سلم [١٣٩] أو أسلم ـ القبيلة العربية ـ [١٤٠]، التي عرفت أيضا باسم مقبرة القريشيين [١٤١]. ومع استبحار عمران المدن بإفريقية تعددت المقابر بها، وتموضعت في الغالب خارج الأسوار والأبواب، وهو ما شكلأحد أهم ملامح المدينة الإسلامية بوجه عام [١٤٢]. إلا أن ذلك لا يعني أن الفضاء الجغرافي للمقابر انحصر فقط خارج أسوار المدن وأبوابها، بل كثيرًا ما كانت تتسع المدن وتمتد خارج الأسوارعبر عديد من الأحياء الإضافية، وبذلكفإن ذلك الاتساع يحتوي المقابر فتصبح داخل المدن [١٤٣]، وهو ما عرَّضَها في بعض الأحيان لأشكال من التعدي ـ كما سيُبحثُ في موضعه ـ يضاف إلى ذلك مقابر أخرى اتخذت في الأساس داخل

---

(١٣٨) محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٨٨، ص ص٥٠، ٦٠.

(١٣٩) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨.

(١٤٠)الهادي روجيه إدريس، **تاريخ الدولة الصنهاجية**، ترجمة، حمادي الساحلي، ج٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، ١٩٩٢، ص١٢.

(١٤١) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٦٢؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٨٣؛ الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص١٢.

(١٤٢) محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص ١١٦. نقلًا عن،

Marcais (G): L'urbanisme Musulman in Melange d'Histoire et d'Archaeogiede de L'Accident Musulman, 1957,219-231.

(١٤٣) وردت إشارة عن قبر "بين يدي حوانيت الخياطين" انظر، المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٤١، وردت إشارة كذلك عن دفن الفقيه أبي علي حسن بن خلدون البلوي (ت٤٠٧هـ) في داره، ثم يعقب الدباغ بأن" قبره الآن بباب سلم مشهور"، وبالمثل دفن أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن محمد الكناني (ت٤٠٨هـ) في داره ثم يضيف الدباغ أن "داره اليوم خارج القيروان". انظر، **معالم الإيمان**، ج٣، ص١٥٥. كما كان بحارة أوغليت في جبل نفوسة مقبرة. انظر، البغطوري، مصدر سابق، ص١٢٣.

المدن، وعليه أمكن تصنيف المقابر إلى ثلاثة أقسام:

أولها: **المقابر العمومية،** ومنها: المقابر العمومية خارج أبواب المدن أو داخلها، ومقابر الربط والقصور، والمقابر التي حبسها البعض على جماعة المسلمين لدفن موتاهم.

ثانيها: **مقابر عامة – خاصة** بأوساط معينة كمقابر الأباضية في نواحي محيطهم الجغرافي، والمقابر المخصصة لأهل الذمة، فضلًا عن المقابر الجماعية التي أُتخذت إما أوقات الحروب أو المجاعات والأوبئة.

ثالثها: **المقابرالخاصة،** ومنها: مقابر بعض الأمراء في قصورهم، ومقابر العلماء في دورهم، ومقابر بعض العائلات الوجيهة، وبعض القبور بالمساجد و الروضات الخاصة.

أما عن **المقابر العمومية بإفريقية،** فمن أشهرهامقابر القيروان، التي امتدت خارج أسوارها، وأهمها: **مقبرة باب سلم،** [١٤٤] وتعرف بالمقبرة العظمى [١٤٥]، أو مقبرة قريش [١٤٦]، ويبدو أن مسمى مقبرة قريش أو القريشيين كان سابقًا على مسمى مقبرة باب سلم، فقد اتُخذت تلك التسمية منذ وقت مبكر يرجع لتاريخ غزوة معاوية بن حديج لإفريقية [١٤٧]، فمن الثابت أن عبدالله بن عمر بن الخطاب كان مشاركًا في تلك الغزوة، وتوفيت له ابنة فدفنت في ذلك المكان، ومن وقتها اتخذته قريش لدفن موتاهم فعرفت

---

(١٤٤) القاضي عياض، **المدارك**، ج٢، ص٢٣.

(١٤٥) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨.

(١٤٦) المصدر نفسه، ج١، ص٦٢؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص ٨٣.

(١٤٧) تحدث ابن عبد الحكم عن ثلاث غزوات قام بها ابن حديج أعوام ٣٤هـ، ٤٠هـ، ٥٠هـ، إلا أن الثابت أن غزوته كانت ٤٥هـ. انظر، أحمد مختار العبادي، **في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠١م، ص٤٠؛ عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح، **المسلمون في المغرب والأندلس**، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥م- ٢٠٠٦م، ص ٣٧-٣٨.

بهم،[١٤٨] وتسمى اليوم بالجناح الأخضر[١٤٩]، وقد دفن بها أعداد لا تحصى من العلماء والصالحين[١٥٠]، فضلًا عن عدد من الساسة والعوام على مدار الفترة المدروسة، ومن أشهر مَن دُفن بها على سبيل المثال لا الحصر: الوالي يزيد بن حاتم المهلبي (ت١٧٠هـ/٧٨٧م)، وأخيه الوالي روح بن حاتم المهلبي (ت١٧٤هـ/٧٩٠م)[١٥١]، وأبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي المتعبد (ت١٧٢هـ/٧٨٨م)، والبهلول بن راشد الزاهد (ت١٨٣هـ/٧٩٩م)[١٥٢]، والقاضي سليمان بن عمران (ت٢٧٠هـ/٨٨٤م)، وأبو عبد الله محمد بن أبي داود العطار (ت٣٠٠هـ/٩١٣م)[١٥٣]، والفقيه أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت٣٠٢هـ/٩١٥م)[١٥٤] وأبو العرب تميم المؤرخ (ت٣٣٣هـ/ ٩٤٥م)[١٥٥]، ومحمد بن الفتحالمُرجي المؤدب (ت ٣٣٤هـ/٩٤٦م)[١٥٦].

أما **مقبرة الرمادية،** فيشير الهادي روجيه إدريس أنها تقع على ربوة تعد

---

(١٤٨) أبو العرب تميم، **طبقات علماء إفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت، ص١٨؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٨٣.

(١٤٩) لم تكن من باب الصدفة تسمية الطريق الشمالية الغربية المفضية إلى الأربس وغيرها بالجناح الأخضر من قِبَل البكري وقد كانت تلك الطريق تعبر مقبرة أسلم وربما سميت من ذلك التاريخ بهذا الاسم، انظر، الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص١٢ هامش (١٦).

(١٥٠) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨.

(١٥١) من أسرة المهالبة الذين تولوا ولاية إفريقية للعباسيين على التوالي، انظر، ابن الأبار، مصدر سابق، ج٢، ص٣٥٨؛ عصام الدين عبد الرؤوف، مرجع سابق، ص١٢١.

(١٥٢) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ص٢٠١، ٣٠٠.

(١٥٣) الدباغ مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٨.

(١٥٤) أبو العرب تميم، مصدر سابق، ص٦١.

(١٥٥) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٦؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٣٨.

(١٥٦) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣١٣. انظر أمثلة أخرى تند عن الحصر، المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٣١١، ج٢، ص ص٢٧، ١٣٦، ١٣٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٩٧، ٣٥٧؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٣١٦، ج٢، ص١٧٧، ٣٤٥، ج٣، ص ص ٥٠، ٥٦، ١٨٠؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٤٥.

امتدادا لمقبرة أسلم ـ الجناح الأخضر ـ [١٥٧] الآنفة الذكر، ومما يعضد أنها محدثة أن كل من دفن بها ينتمي إلى القرن الرابع الهجري، حسبما توفر من إشارات، فمن المقبورين بها من أهل العلم والعبادة: أحمد بن نصر الهواري (ت٣١٧هـ/٩٢٩م)، وأبي حفص عمرون بن خيرون (ت٣٤٧هـ/٩٥٨م)، وأبي القاسم بن سعيد العابد (ت٣٦٦هـ/٩٧٧م)، وأبي القاسم بن حمديس القطان العابد (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م)، وأبي عبد الله محمد بن التبان (ت٣٩٧هـ/١٠٠٧م)وأخيه عبدون (ت ٤٠١هـ/١٠١١م) [١٥٨].

من المقابر التي ارتبطت أيضا بأبواب القيروان **مقبرة باب نافع**، ومن أشهر المقبورين بها من القضاة والفقهاء والعُبَّاد: القاضي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (ت١٦١هـ/٧٧٨م)[١٥٩]، والقاضي عبد الله بن غانم (ت١٩٠هـ/ ٨٠٦م) [١٦٠] وعون بن يوسف الخزاعي الزاهد (ت٢٣٩هـ/٨٥٣م) [١٦١]، والقاضي سحنون بن سعيد التنوخي (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) [١٦٢]، والفقيه أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله (ابن عبدوس صاحب المجموعة، ت٢٦٠هـ/٨٧٤م) [١٦٣]، والفقيه الولي المتعبد أبي إسحاق السبائي (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م). [١٦٤]

---

(١٥٧) **الدولة الصنهاجية**، ج٢، ص١٣.

(١٥٨) الدباغ مصدر سابق، ج٣، ص ص٩، ٦١، ٨٤، ٩٦، ١٠٦، ١٣١، ١٣٣.

(١٥٩) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص١٥٤؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٦.

(١٦٠) المصدر نفسه، ج١، ص ص٢٢٩، ٢٤٠.

(١٦١) أبو العرب تميم، مصدر سابق، ص١٠٥.

(١٦٢) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ٣٤٧.

(١٦٣) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص ص١٤٤، انظر أمثلة أخرى، المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ١٥٣؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص ص ٦٢، ١٥١، ٢٤٧.

(١٦٤) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١٢١.

تقع **مقبرة باب أبي الربيع** [١٦٥] قبلة القيروان [١٦٦]، وممن دفن بها من أهل العلم والعبادةأبو سنان زيد بن سنان الأسدي (ت٢٤٤هـ/٨٥٨م)، وأبو محمد عبد الله بن سهل القبرياني (ت٢٤٩/٨٦٣م) [١٦٧]، وأبو عبد الله محمد ابن شوال الطائي (ت٢٦٥هـ/٨٧٩م) [١٦٨]، وكل من الفقيه إبراهيم ابن محمد الضبي المعروف بابن البرزون والفقيه أبو بكر بن هذيل المقتولين على يد الشيعة عام ٢٩٩هـ/٩١٢م [١٦٩]، وقد أطلق الناس فيما تلا ذلك من عصور على المحيط الذي دفنا فيه اسم قبور الشهداء، وقد رجحابن ناجي أنهما المقصودان لأنهما ماتا شهيدين [١٧٠]، وهو ما يحمل بين طياته دلالات سياسية مذهبية. ومن المقبورين أيضا المتعبد عبدالله الفخار المعروف بالغيمي (ت٣١٦هـ/٩٢٨م)[١٧١]، والفقيه المفتيأبي حفص عمر بن محمد بن مسرور العسال (ت٣٤٣هـ/٩٥٤م)[١٧٢]، وأبيه أبي عبد الله محمد بن مسرور العسال (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م)صاحب المكانة الكرامية المعتبرة في نفوس أفراد مجتمع إفريقية حيًا وميتًا. [١٧٣]

---

(١٦٥) الخشني، **طبقات علماء إفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، د. ت، ص ص ١٨٩، ٢١٦؛ أبو العرب تميم، مصدر سابق، ص٥٧.

(١٦٦) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٩٦.

(١٦٧) المصدر نفسه، ج٢، ص ص١٠٩، ١١٢.

(١٦٨) المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٠.

(١٦٩) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٦٩؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٥٤-١٥٥.

(١٧٠) **معالم الإيمان**، ج٢، ص ٢٩٦.

(١٧١) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ١٨٩.

(١٧٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٤١١.

(١٧٣) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٥٩-٦٠.

أما **مقبرة باب تونس** [١٧٤]، فممن دفن بها: صدقة الضرير المتعبد (ت٣٠٤هـ/٩١٧م) [١٧٥]، ومحمد بن أبي بكر الأنصاري (ت٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) وعبد الرحمن بن عبدالله الخولاني (ت٣٩٤هـ/١٠٠٤م) [١٧٦] وفقيه القيروان وعالمها أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) وتلميذه المالكي صاحب رياض النفوس (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م). [١٧٧]

تُلحق **مقبرة البلوية** بمقبرة باب تونس، ويعود تاريخ تلك المقبرة إلى تاريخ وفاة أبي زمعة البلوي (ت بعد ٣٤هـ/٦٥٥م)، الذي دخل إفريقية فترة الفتوح الأولى، ولما توفي دفن بذلك الموضع فنسب إليه وسمي بالبلوية [١٧٨]، وتقع بمنطقة القرن شمال غرب القيروان على بعد عشرة كيلو مترات، وهي المنطقة التي اتخذها معاوية بن حديج معسكرًا ثابتًا لعسكره [١٧٩]؛ وعليه فإن تسمية البلوية سابقة لتسمية مقبرة باب تونس، ويبدو أنه بعدما اكتمل عمران القيروان ووضحت كل تكويناتها من الأسوار والأبواب، واُتخذ خارج باب تونس كمقبرة، فإن تلك المقبرة اتسعت مع مرور الوقت حتى التحمت مع البلوية، وإن ظل كل موضع محتفظًا بمسماه، ودليل ذلك الإشارات السابقة أعلاه عن الدفن تحديدًا في باب تونس، فضلًاعن إشارات أخرى عن دفن كثير من العلماء والصالحين بالبلوية من أمثال: محمد بن يحيي بن سلام

(١٧٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩.

(١٧٥) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٨.

(١٧٦) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٧.

(١٧٧) القاضي عياض، **المدارك**، ج٢، ص ٢٢٧؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١٧٤.

(١٧٨) أبو العرب تميم، مصدر سابق، ص١٧؛ المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨٤؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص ٩٧؛ سعيد بن مقديش الصفاقسي، **نزهة النظار في عجائب التواريخ والأخبار**، ج١، ط١، تحقيق، علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨م، ص٢٠٩.

(١٧٩) محمد صبري محسوب، مرجع سابق، ص٥٣٣.

(ت٢٦٢هـ/٨٧٦م)، ومحمد بن محمد بن يحيي بن سلام (ت٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)، والحسن بن محمد القلانسي (ت٣٢٧هـ/٩٣٩م) [١٨٠].

ومن المقابر العمومية بتونس أيضًا، مقبرتها الشهيرة المعروفة **بمقبرة الزلاج**، التي تعد أكبر مقابرها على الإطلاق، وقد دفن بها عدد كبير من الفقهاء والصالحين والعُبَّاد [١٨١]، كما أن الجبل الذي وجدت فيه عُرف أيضًا بجبل الزلاج، وهو خارج تونس [١٨٢]. وبخارج باب أرطة أيضا مقبرة تعرف **بمقبرة سوق الأحد** [١٨٣]، **ومقبرة أخرى خارج باب البحر** ومن أشهر المقبورين بها: الشيخ الصالح العابد أبو رياح فرج (ت قبل ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م) [١٨٤]. أما داخل تونسفتوجد **مقبرة بالقرب من باب المنارة** بجهة القصبة، ومن أعلامها أحمد بن عبد العزيز بن نفيس (ت٤٧٩هـ/ ١٠٨٦)[١٨٥]، وأخرى بالقرب **من الباب الجديد**، وممن دفن بها أبو زيد عبد الرحمن المناطقي (ق٥هـ/١١م) [١٨٦]. وفيما يتعلق بتلك المقابر داخل تونس فلم يتضح من خلال النصوصعما إذا كان موضعها في الأساس كان خارج الأبواب، ومع اتساع تونس زحف العمران عليها وأصبحت داخل المدينة أم أنها اتخذت أصلا في الداخل.

كانت **مقبرة سوسة** الرئيسية تقع على يمين بابها القبلي المعروف بباب

---

(١٨٠) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص ص ١٥٠، ١٩٦، ج٣، ص١٦.

(١٨١) الوادي آشى، **برنامج الوادي آشي**، تحقيق، محمد الحبيب الهيلة، المملكة العربية السعودية، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، تونس، ١٩٨١، ص٥٤.

(١٨٢) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق١٢، ص١٨٠.

(١٨٣) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت، ص٤٠.

(١٨٤) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق١١، ص١٧٨.

(١٨٥) المصدر نفسه، ملحق١١، ص١٧٧.

(١٨٦) المصدر نفسه، ملحق٧، ص١٦٣.

القيروان [١٨٧]، ومن أشهر المقبورين بها يحيى بن عمر (ت٢٨٩هـ/ ٩٠٢م)[١٨٨]. فضلًا عن مقبرة أخرى شهيرة عرفت **بقبة الرمل**أو "**قبور الشهداء**" [١٨٩]، ويبدو أنها كانت في الأصل جناحًا خاصًا بالأمير إبراهيم الأغلبي، ثم اتخذت بعد ذلك للدفن [١٩٠]، ومن الراجح أنه أُطلق عليها قبور الشهداء نسبة إلى كثير من علماء وفقهاء السنة المقتولين على أيدي الشيعة، ومن المقبورين بها: أحمد بن سعدون الأربسي (ت ٣٢٣هـ/٩٣٥م)، وأبي جعفر القمودي (ت٣٢٤هـ/٩٣٦م) [١٩١].

وعلى المنوال ذاته خصصت لكل مدينة من مدن إفريقية الأخرى مقبرة عامة، كما هو الحال في طرابلس [١٩٢]، وسرت [١٩٣]، وقابس [١٩٤]، وأريانة[١٩٥]، وجبنيانة [١٩٦]، وبسكرة [١٩٧]، والقصر الكبير [١٩٨] وغيرها من المدن والقرى.

---

(١٨٧) البكري، مصدر سابق، ص٣٥.

(١٨٨) ابن فرحون، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، ج٢، تحقيق وتعليق، محمد الأحمدي أبو النور دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، ص٣٥٤.

(١٨٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٣١.

(١٩٠) الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص٤٧.

(١٩١) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ص٢٠٧، ٢١١.

(١٩٢) التجاني، **رحلة التجاني**، قدم لها، حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨١، ص٢٤٩؛ الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص٦٨.

(١٩٣) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٩٧.

(١٩٤) التجاني، مصدر سابق، ص٩١.

(١٩٥) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٥٤.

(١٩٦) اللبيدي، مصدر سابق، ص٦٩؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٧؛ التجاني، مصدر سابق، ص٨١.

(١٩٧) البكري، مصدر سابق، ص٥٢.

(١٩٨) الحميري، مصدر سابق، ١٩٨٠، ص٤٧٦.

يُلحق بالمقابر العامة **مقابر الرُبُط والقصور**، ولا ريب فقد استحوذت تلك المقابر خاصة على اهتمام ومشاعر أفراد المجتمع وأثرت في معتقداتهم إلى حد بعيد؛ لما حوته من رفات العُبَّاد والصلحاء، الذين حظوا بولاء مجتمعي عز نظيره في بلاد الإسلام قاطبة، وذلك حسبما تفيد به النصوص المصدرية على مدار الفترة المدروسة.

تعتبر الربط أحد أهم المؤسسات الدينية والحربية التي أعطت البعد الإسلامي لبلاد المغرب منذ وقت مبكر، وقد بدأذلك الدور في الظهور مع تأسيس رباط المنستير (١٩٩)، الذي أسسه القائد العباسي هرثمة بن أعين عام ١٨٠هـ/٧٩٦م (٢٠٠)، ثم توالى بعد ذلك إنشاء القصور والربط على طول الساحل خلال العصر الأغلبيوما تلاه من عصور، وبتلك الربط كان العباد والزهاد ينقطعون للعبادة وتأمين سلامة السواحل ودرء أي أخطار خارجية يمكن أن تتعرض لها وذلك بشكل حماسي وطوعي (٢٠١)؛ ومن ثم اشتمل كل قصر ورباط على مقبرة تحوي جثامين أولئك العُبَّاد والصلحاء؛ وعليهتمتعت تلك المقابر بمكانة معتبرة في نفوس مجتمع إفريقية. ومن أشهر تلك الربط والقصور: **رباط المنستير**، ومن المقبورين به: مكرموفيزر المتعبدان (ت ق٣هـ/٩م)، وسعدون بن أحمد الخولاني (ت٣٢٤هـ/٩٣٦م)، وبشير المتعبد

---

(١٩٩) المنستير، هو موقع بين المهدية وسوسة بإفريقية وهو عبارة عن خمسة قصور يحيط بها سور واحد، ويسكنها قوم من أهل العبادة والعلم، وهو من محارس سوسة، ويقال أن الذي بنى القصر الكبير به هرثمة بن أعين عام ١٨٠هـ/٧٩٦م.

انظر، ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٥، ص٢٠٩.

(٢٠٠) محمد الأمين بلغيث، **الربط بالمغرب الإسلامي ودورها على عهد المرابطين والموحدين**، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ١٩٨٦-١٩٨٧، ص ١٠٧-١٠٨.

(٢٠١) محمد الأمين بلغيث، مرجع سابق، ص ص١٠٩، ١١٢-١١٣.

(ت٣٤٧هـ/٩٥٨م)، وأبي سعيد خلفونالنوفلي (ت٣٥٤هـ/٩٦٥م) [٢٠٢]. وحسب الإدريسي فإن المهدية كانت خالية من المقابر خلال القرن السادس الهجري؛ لذا كان أهلها ينقلون موتاهم بالمراكب إلى المنستير لدفنهم هناك[٢٠٣]، بينما يعلل مقديش ذلك بأن أهل المهدية كانوا يرومون التبرك بالدفن في رباط المنستير [٢٠٤]. من رباطات إفريقية الشهيرة أيضا **قصر الطوب** - بالقرب من سوسة - ومن المقبورين به بكار المتعبد (ت٢٩٤هـ/٩٠٧م)، وأبي عثمان بن إسحاق الكلبي (ت٢٩٤هـ/٩٠٧م)، وأبي يونس المتعبد (٣٠٤هـ/٩١٧م) [٢٠٥]. وبالمثل قُبر **بقصر سهل** المعروف بالقصر الجديد، أبو الفضل يوسف بن مسرور (ت٣٢٤هـ/٩٣٦م) [٢٠٦]، **وبقصر زياد** دفن عبد الرحيم بن عبد ربه (ت٢٤٧هـ/٩١٧م) [٢٠٧]، وبقصر جُمَّة الذي عرف فيما بعد **بقصر الرباط** بالمهدية [٢٠٨]دُفن واصل بن عبد الله الجمي المتعبد (ت٢٥٢هـ/٨٦٦م) [٢٠٩]، ودُفن أبو عبد الله محمد بن سهلون

---

(٢٠٢) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٢٠، ج٢، ص ص٢٥١، ٤٣٧، ٤٦١.

(٢٠٣) **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج١، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩ هـ، ص٢٨٢؛ الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص٥٣. أشار ابن عذاري أن زوجة نصير الدولة باديس توفيت عام ٤١٢هـ، وأنها دفنت بالمهدية، انظر، **البيان المغرب**، ج١، ص٢٧٠.

(٢٠٤) **نزهة النظار**، ج١، ص١١٣؛ الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص٥٣.

(٢٠٥) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ص١٠، ١٢، ١٢٣.

(٢٠٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٣٤؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٥. بنى قصر سهل الفقيه الورع أبو يزيد سهل بن عبد الله القبرياني (ت٢٨٢هـ/٨٩٥م)، وهو قبلة سوسة، على بعد ثلاثة أميال منها. انظر، الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٦.

(٢٠٧) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٣٠.

(٢٠٨) المصدر نفسه، ج١، ص٤٣١.

(٢٠٩) المصدر نفسه، ج١، ص٤٤١.

(ت٣٢٧هـ/٩٣٩م) **بقصر جبنيانة** [٢١٠] كما دفن أصحاب معروف الكرخي **بقصر نفطة** الذي كانوا يرابطون به [٢١١].

أما عن **المقابر العامة ـ الخاصة** فهي تتعلق بأوساط معينة، كمقابر الأباضية في نواحي محيطهم الجغرافي، وقد تبين من خلال معاينة نصوص الفترة، أن الأباضية لم يتقيدوا بالدفن في المقابر العامة المعروفة في وسطهم؛ وهو ما تتوافر بشأنه إشارات عدة، ومن ذلك أن الشيخ ابن أكبت حاكم فساطو لما مرض ونقله أصحابه إلى منزله؛ أصر أن يعيدوه إلى دار بني عبدالله "موضع الرباط" [٢١٢]، فدفن قبلة الدار [٢١٣]. ولما توفي الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) دفن في قبر أمام غاره الذي كان يتعبد فيه [٢١٤]. بالمثل لما قتل الأعراب عدل بن اللؤلؤ في وارجلان؛ دفن بموضعه تحت كدية على طريق أوزاغت – أوزواغت – [٢١٥] وكان قبر حبيب بن زلغين

---

(٢١٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦١.

(٢١١) التجاني، مصدر سابق، ص٨٤؛ مقديش، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٥. معروف الكرخي هو عَلم الزهاد والمتصوفة ببغداد توفى عام ٢٠٠هـ أو ٢٠٤هـ، انظر، الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٦، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٨٦-٨٩. ويبدو أن بعض أتباعه قد هاجر إلى إفريقية، ورابطوا بقصر نفطة.

(٢١٢) تقع هذه الدار في سوق جادو بجبل نفوسة، وهي ذات موقع استراتيجي وقد لعبت دورا سياسيا ودينيا مهما، حيث كانت مجلسا لمشايخ الأباضية وهي من مشاهد الجبل، ولا يستبعد أن سميت بذلك الاسم نسبة إما إلى أبي زكريا بن أبي عبد الله التندمرتي أو إلى أبي عبد الله محمد الدرفي.
انظر، الشماخي، مصدر سابق، ص٢٣٠، هامش (٤).

(٢١٣) البغطوري، مصدر سابق، ص١٤٠.

(٢١٤) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٦٨؛ الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٢.

(٢١٥) الوسياني، مصدر سابق، ص٦١١.

فوق بني ويليل في الصحراء بالقرب من أريغ، [٢١٦] وبجبل نفوسة مقبرة في حارة أوغليت. [٢١٧] نشأت كذلك في الوسط الأباضي مقابر نسبت إلى بعض مشايخ الأباضية نتيجة لدفنهم بها ثم تحولت بعد ذلك إلى مقابر عامة يدفن بها الناس تبركًا بهؤلاء المشايخ، وذلك من قبيل: مقبرة الشيخ أبي صالحجنون بن يمريانبوارجلان [٢١٨]. ومن المقابر العامة والشهيرة عند الأباضية، مقبرة أجلو الغربية، ومقبرة بني يراسن في جربة [٢١٩].

يُلحق بذلك النوع من المقابر، **المقابر المخصصة لأهل الذمة**، فقدكان لليهود مقابرهم الخاصة، منها ما كان بالقيروان في منطقة تسمى "اليهودية" تقع وراء باب أبى الربيع [٢٢٠]، ذكر روجيه إدريس أنها كانت مقبرة خاصة بهم [٢٢١]، وبجبل نفوسة تقع مقابر منطقة الحارط إلى الجنوب عند قصر يسمى آت مان كان نصفها لليهود ونصفها الآخر للبربر [٢٢٢]. فضلا عن مقبرة يهودية أخرى تقع بمدينة جادو وهي مركز اقتصادي وسياسي قديم في

---

(٢١٦) الوسياني، مصدر سابق، ص٦١٥-٦١٦. ريغ كلمة بربرية معناها السبخة، وهي كورة صغيرة بأرض المغرب قرب مليانة. انظر، الحميري، مصدر سابق، ص٢٨٠.

(٢١٧) البغطوري، مصدر سابق، ص١٢٣.

(٢١٨) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٦؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٣٦٦.

(٢١٩) الوسياني، مصدر سابق، ص٦٤٦. انظر إشارات أخرى عن تلك المقابر، الوسياني، مصدر سابق، ص٥٧٧؛ الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٥٧.

(٢٢٠) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ٣١٠ .

(٢٢١) روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص ٢٤ .

(٢٢٢) إبراهيم سليمان أشاخي، **قصور ومسالك جبل نفوسة**، تحقيق وتعريب محمد حمام، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، ٢٠٠٤، ص ص ١٣٨-١٣٩.

نفوسة [٢٢٣]؛ لذا كان يعيش بها جالية يهودية كبيرة [٢٢٤]. ويمكن التكهن بوجود مقابر خاصة باليهود في المدن التي تواجدوا بها، تمشيا مع عوائدهم وتقاليدهم في دفن موتاهم، فقد كان لليهود وجود بإقليم طرابلس وربما بأعداد كثيفة [٢٢٥]، حتى نسبت إليهم أسماء بعض مدنه، مثل مدينة اليهودية[٢٢٦] أو اليهودتين [٢٢٧] الواقعة على الطريق الساحلي بين برقة وطرابلس [٢٢٨]، والتي عرفت خلال فترة الدراسة بمرسى اليهودية [٢٢٩]، كما تواجد اليهود في قرية صرمان [٢٣٠]، ومدن سرت [٢٣١] ولبدة [٢٣٢] وزويلة [٢٣٣] وجزيرة جربة [٢٣٤]، وأجدابية، التى كان الغالب على أهلها

---

(٢٢٣) الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص٧٣؛
Espois (J): Le DjebelNefousa,Paris,1935, P. 245.

(٢٢٤) البكري، مصدرسابق، ص ٩؛ مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦ م، ص١٤٤؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج٢، ص٩٢.

(٢٢٥) البرزلي، مصدر سابق، ج٢، ص ٤٤.

(٢٢٦) اليعقوبي، **البلدان**، تحقيق ديغويه، مطبوع مع الأعلاق النفيسة لابن رستة، طبعة ليدن ١٨٩٢، ص٣٤٤.

(٢٢٧) ابن خرداذبة، **كتاب المسالك والممالك**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ص٨٦.

(٢٢٨) البكري، مصدر سابق ص ٨٥.

(٢٢٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩، ج١، ص ٣١٤.

(٢٣٠) البرزلي، مصدر سابق، ج٢، ص ٤٤.

(231) Mann(J (: Texts and studies in Jewish History and literature, New york,1972,p. 465.

(232) Goitein (S. D): A Mediterranean Society the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Geniza ,University of CaliforniaPress,1983,4,p. 37.

(٢٣٣) أبو زكريا، **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق، إسماعيل العربي، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٩، ص ١٦٢؛ الإدريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣١١؛ الحميري، مصدر سابق، ص١١.

(٢٣٤) حاييم زعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب**، ترجمة، أحمد شعلان وعبد الغنى أبو العزم، د. م، ١٩٨٧، ص٢٤.

اليهود [٢٣٥]، ومنطقة جبل نفوسة [٢٣٦]، لا سيما مدينة شروس [٢٣٧]، كما استوطنوا المدن الكبرى بإفريقية مثل تونس[٢٣٨] قفصة[٢٣٩]ونفزاوة[٢٤٠] وصفاقس[٢٤١] والقيروان التي كان بها سوق كبير لليهود [٢٤٢]والمهدية[٢٤٣] وبلزمة وطبنة [٢٤٤]ورقادة [٢٤٥].

أما فيما يتعلق بمقابر النصارى فرغم ندرة الإشارات بشأنها إلا أنه يمكن التكهن بوجودها في المناطق التي شهدت تزايد أعدادهم، ومما يعضد ذلك إشارة تخص مقبرة للنصارى، وردت في إحدى النوازل التي ناقشت مكان دفن الكتابية التي تموت بحمل من مسلم، وجاءت فتوى ابن أبي زيد القيرواني بدفنها في مقبرة أهل دينها في حين أجاز آخرون دفنها بطرف مقبرة المسلمين [٢٤٦].

تجدر الإشارة أيضًا أن **المقابر الجماعية** اُتخذتْ في مناسبات خاصة إما في أوقات الحروب أو زمن المجاعات والأوبئة؛ كنتيجة لعدم القدرة على دفن

---

(٢٣٥) الإدريسي، مصدر سابق، ج١، ص ٣١١؛ الحميري، مصدرسابق، ص ١٢.

(٢٣٦) الدرجيني، مصدرسابق، ص ص ١٢٤، ١٢٣؛ الشماخي، مصدر سابق، ص١٧١.

(٢٣٧) الدرجيني، مصدرسابق، ص ص٤٧٢، ٤٨٤؛ الشماخي، مصدرسابق، ص ٢٥٢.

(238) Hirschberg: A History of the Jews in North Afrrica,1, Leiden, Ej brill, 1974 ,p. 373-374.

(٢٣٩) البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص ١٦٦.

(٢٤٠) مؤلف مجهول، الاستبصار، ص ١٤٤.

241) حاييم زعفراني، مرجع سابق، ص ٢٤) Mann: op. cit,p. 344,

(٢٤٢) أبو العرب تميم، مصدر سابق، ص٥٥؛ المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٧٣.

(243) Goitein: **op. cit**. ,1,p. 276.

(٢٤٤) ابن عذارى، مصدرسابق، ج١، ص١٤١.

(٢٤٥) ابن الأبار، مصدر سابق، ج١، ص ١٧٦.

(٢٤٦) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٦.

الأعداد المهولة من الضحايا في مقابر مفردة، وقد شهدت إفريقية ذلك النوع من الدفن، ونموذج ذلك آلاف القتلى من جند المشرق إثر هزيمتهم على يد زعيم الأباضية أبي حاتم الملزوزي بمغمداس (٢٤٧)، وقد قيل أنهم دُفنوا في "أربعة أكداس في كل كدس أربعة آلاف" (٢٤٨). ورغم مبالغة الرواية الأباضية إلا أنها لا تخلو من دلالة تشير إلى ضخامة أعداد الضحايا؛ وهو ما اقتضى اتخاذ المقابر الجماعية.

وكان من المعهود أيضًا زمن الأوبئة والطواعين أن يزداد عدد الموتى في ظل انعدام التدابير الوقائية والعلاجية، مع ضعف أو حتى غياب الوعي الصحي؛ لذا كانت تحفر الأخاديد لدفن هؤلاء الضحايا، ونموذج ذلك وباء ٢٨٥هـ/٨٩٨م، الذي مات فيه "من الناس مالا يحصى فكان يدفن في القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة" (٢٤٩)، وهو ما ينطبق على الوباء والطاعون الذي حل بإفريقية عام ٣٩٥هـ/١٠٠٥م وهلك فيه أكثر الناس من غني ومحتاج "فلا ترى متصرفا إلا في علاج أو عيادة مريض أو آخذ في جهاز ميت أو تشييع جنازة أو انصراف من دفن"، وكان الفقراء والضعفاء يُجمعون إلى باب سلم، فتُحفر لهم الأخاديد ويُدفن المائة وأكثر في كل أخدود (٢٥٠).

---

(٢٤٧) بينها وبين قصور حسان مرحلة، انظر، المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢٤٥.

(٢٤٨) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص٣٩؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٤٠. عن تفاصيل المواجهات بين جيوش الخلافة والأباضية بزعامة أبي حاتم الملزوزي، انظر، الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص٣٨-٣٩.

(٢٤٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٣م، ص٩٧.

(٢٥٠) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٦-٢٥٧.

أما **المقابر الخاصة**، فرغم ندرة الإشارات المتعلقة بدفن أفراد الأسر الحاكمة بإفريقية على مدار الفترة المدروسة، إلا أنه يمكن الجزم بأن أفراد تلك الأسر عمدوا إلى **دفن الأمراء في قصورهم**، تمسكًا بمظاهر الأبهة وأنفة من الدفن في مقابر عامة الناس، ومن أمثلة مَن دفنوا بقصورهم الخليفة الفاطمي المنصور بالله (ت٣٤١هـ/٩٥٢م)الذي دفن في قصره بصبرة [٢٥١]، ولما مات جوذر – كاتب المعز الفاطمي– دفن في مسجد داخل قصر مياسر الذي كان يقيم به المعز [٢٥٢]، ودفن المنصور بن زيري بن مناد الصنهاجي (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م)بقصره الجديد خارج المنصورية [٢٥٣]. كما جرت عادة حكام الدولة الصنهاجية بعد ذلك بأن يُدفنوا في قصورهم ثم يُنقلوا بعد ذلك إلى قصر السيدة أم ملال – عمة المعز بن باديس – بالمنستير وهو المعروف بقصر السيدة [٢٥٤]. ويبدو أن ذلك القصر أُلحق به مسجد عرف أيضًا بمسجد السيدة، وقد دفنت بمقصورة فيه، وكان مزارًا يؤمه الناس من كل مكان حتى وقت قريب [٢٥٥]. وفي الإطار ذاته شيدت بعض الأسر الوجيهة مقابر خاصة بها، كأسرة بني خراسان بتونس [٢٥٦]، التي خصصت ما يعرف

---

(٢٥١) ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط١، مطبعة الدولة التونسية، ١٣٨٦هـ، ص٥٩.

(٢٥٢) الجوذري، **سيرة الأستاذ جوذر "وبه توقيعات الأئمة الفاطميين"**، تحقيق، محمد حسين كامل، ومحمد عبد الهادي شعيرة، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٥٤، ص١٤٧.

(٢٥٣) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٧.

(٢٥٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ج١، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٧، ص٢٧٢.

(٢٥٥) ابن مخلوف، **شجرة النورالزكية في طبقات المالكية**، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٤٩هـ، ص١٩٢.

(٢٥٦) عن أسرة بني خراسان، انظر، سلمان محمد البدراني، **"إمارة بنى خراسان في تونس دراسة فيأوضاعها السياسية ٤٤٦ – ٥٥٤ هـ"**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج ١٢، ع ٣، ٢٠١٣، ص ٤٤٥ – ٤٦٢.

بقبة بني خراسان لتضم أضرحة أعضاء تلك الأسرة، وذلك منذ عام ٤٨٦هـ/١٠٩٣م.[٢٥٧]

عرف مجتمع إفريقية كذلك ظاهرة **دفن العلماء والأولياء في منازلهم**، وربما كان ذلك بوصية من أولئك العلماء، أو رغبة في إفراد العلماء والأولياء ذوي المكانة الكرامية والولائية بمقابر خاصة؛ ليسهل تمييزهاواتخاذها بعد ذلك كمزارات يُتبرك بها ويُنزع إليها في الملمات والشدائد، ومن مشاهير العلماء والفقهاء والأولياء المقبورين بدورهم: أبي عبد الله محمد بن بدر بن يحيي الجذامي (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) [٢٥٨] والفقيه أبي عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ/١٠٣٩م) وقبره مشهور بالقيروان يتبرك به [٢٥٩]، وأبي القاسم عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المعروف باللبيدي (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م[٢٦٠]، والفقيه أبي القاسم السيوري (ت٤٦٠أو٤٦٢هـ/١٠٦٨أو١٠٧٠م) [٢٦١].

وقد جرى في بعض الأحيان أن تتحول تلك الدار إلى مقبرة يدفن بها بعض الأقارب من العلماء والأولياء فتعرف المقبرة باسم الأسرة، ونموذج ذلك الفقيه أبي محمد بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) الذي دفن بداره [٢٦٢]، ولما توفي ابنه أحمد (ت٤٦٠هـ/١٠٦٨م) دفن بالدار نفسها؛ ومن ثم صارت مقبرةتعرف باسم تلك الأسرة [٢٦٣]. وبالمثل دُفن أبو القاسم عبد الخالق بن خلف بن شبلون (ت٣٩٠هـ/١٠٠٠م) بداره، وتبعه دَفن

(٢٥٧) الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص٣٥.
(٢٥٨) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٧٨.
(٢٥٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٣.
(٢٦٠) القاضي عياض، المدارك، ج٢، ص٢٨٣؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٥.
(٢٦١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٤.
(٢٦٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١١٨.
(٢٦٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٨٩.

حفيده عبد الله بالدار نفسها [٢٦٤]، والمؤدب محرز بن خلف (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م) الذي دُفن بداره داخل تونس [٢٦٥]بناحية باب السقائين أو باب السويقة [٢٦٦]، ثم دُفن بتربته جمع كثير من مشاهير الأولياء من أولاده وقرابته [٢٦٧]، وهو ما ينطبق على مؤدبه يونس بن محمد (ت٥٠٠هـ/١١٠٧م) الذي دفن بداره داخل تونس من جهة الغرب بناحية باب قرطاجنة [٢٦٨]، وعرفت تلك الدار بعد ذلك بتربة سيدي يونس مؤدب سيدي محرز [٢٦٩].

تعتبر المقابر التي اُتخذتْ **في المساجد** من نوع المقابر الخاصة، وهي متعلقة أيضًا بالعلماء والأولياء، وقد كره أصحاب مالك اتخاذ القبر في المسجد حتى لا يُعبد هذا القبر، في حين أجازه الأندلسيون إن كان المسجد قد اتخذ في الأصل لوضع الموتى أو اضطُر للدفن فيه [٢٧٠]. وعلى كل فقد أفادت عدة إشارات بدفن بعض الصلحاء والأولياء بالمساجد، ومنها: مسجد السبت، المعروف بمسجد الدمنة خارج القيروان، حيث كان يجتمع به أولياء الله والصلحاء والقراء والحفاظ والعلماء؛ يقرأون في الوعظ والرقائق يوم السبت من كل أسبوع، وبانيه هو أبي محمد الأنصاري الضرير المتعبد (ت٢٥٠هـ/٨٦٤م) [٢٧١]، وقبره موجود بصحن المسجد، ويذكر الدباغ بأن

---

(٢٦٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ص ١٢٤، ١٢٩.

(٢٦٥) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٤٣؛ الحميري، مصدر سابق، ص١٤٤.

(٢٦٦) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص ص ١٤٢، ١٤٤.

(٢٦٧) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ١١، ص١٧٦.

(٢٦٨) المصدر نفسه، ملحق ١١، ص١٧٧.

(٢٦٩) المصدر نفسه، ملحق ١٠، ص١٧٥.

(٢٧٠) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٣.

(٢٧١) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص ص ٣١-٣٢، ١١٤.

المسجد يحتوي قبور عددمن أكابر العلماء قددثرت [٢٧٢]، ومن الصلحاء المقبورين به أيضًا أحمد بن معتب (ت٢٧٧هـ/٨٩٠م) [٢٧٣]. وكان مسجد الخميس على غرار مسجد السبت يجتمع فيه الصلحاء لسرد الرقائق، وهو بالدمنة أيضًا بناه ودُفن فيه أبو إسحاق إبراهيم بن المضاء الزاهد (ت٢٧٦هـ/٨٨٩م) صاحب سحنون [٢٧٤].

كان من الراجح أيضًا أن يُتخذ المسجد بعد القبر، ففي بعض الحالات ونتيجة لمكانة بعض الأولياء والعلماء والفقهاء في وسطهم الاجتماعي يلجأ الناس إلى بناء مسجد على قبر ذلك العالم أو الولي؛ إجلالًا وتعظيمًاله وتبركًا به، نموذج ذلك الفقيه الأباضي أبي عبد الله محمد بن بكر (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) الذي دفن في مقبرة أمام غاره في أجلو، [٢٧٥] ثم اتخذ الناس مسجدابعد ذلك على قبره [٢٧٦].

رابعًا: أهمية الدفن وشكل القبر وبناؤه:

يُمكن أن نلمس **أهمية الدفن** عند مختلف أصحاب المذاهب من كونه أهم حق من حقوق الأموات [٢٧٧]على الإطلاق؛ فصيانة الجسد بدفنه ضرورة لابد منها حسب الاعتقاد السائد؛ [٢٧٨]لأن حرمة المسلمين موتى

(٢٧٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١١٧.
(٢٧٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٨٣.
(٢٧٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٢، ج٢، ص١٧٦.
(٢٧٥) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٦٨؛ الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٢.
(٢٧٦) والآن قبره في مسجد بقرية بلدة عمرو بدائرة تيقورت، وهو مشهور عند الأهالي باسم سيدي محمد السائح. انظر، الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٢، هامش (١).
(٢٧٧) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٢٠؛ ابن عبدون، **رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة**، تحقيق، ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥، ص٢٦.
(٢٧٨) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٧٣.

كحرمتهم أحياء [٢٧٩]، يضاف إلى ذلك أن القبر يعد أحد دلائل إثبات حالة الشخص من حيث الحياة أو الموت [٢٨٠]، وما يترتب على ذلك الإثبات من حقوق الزوجية والميراث والمعاملات وغيرها، ناهيك عما يورثه غياب الجثة وانعدام قبر يحوطها ويصون حرمتها من مرارة وحيرة لدى أهل المفقود، وهو ما تعبر عنه حالة أبي العباس فضل بن نصر التاهرتي (ت٣٤٤هـ/٩٥٥م) الذي فقد ابنه واختلفت عليه الأخبار، فلم يتيقن من كونه حي أو ميت أو مقتول أو غريق؛ مما أورثه حزنًا وحيرة فأنشد أبياتًا يعبر فيها عن حالته متمنيًا لو قُبر ابنه حتى يتسنى له الصبر والاحتساب والأجر [٢٨١]. ومن هذا المنطلق حرص الناس على دفن موتاهم، وإدراكًا من بعض الساسة والعسكريين لتلك الأهمية فقد حرصوا على دفن أعدائهم، حتى لو كانوا مخالفين لهم مذهبيًا، ومن دلائل ذلك أن أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري (ت١٤٤ه) زعيم الأباضية طلب من أهل القيروان إثر هزيمته لهم أن يخرجوا إلى قتلاهم ليدفنوهم [٢٨٢]، وهو ما ينطبق على مسلك أبي حاتم الملزوزي مع أهل طرابلس، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث منع جنده من سلب قتلى أهل طرابلس رعاية لحرمة أجسادهم [٢٨٣]، وهو ما يعد مبالغة واضحة من

---

(٢٧٩) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٣٥.

(٢٨٠) محمد بن سحنون، **كتاب الأجوبة**، تحقيق، حامد العلوي، ط١، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ٢٠٠٠م، ص١٠٥.

(٢٨١) ومما قاله في هذا الصدد: فلو كافتقاد الناس بنيهم أتيح له موت وأضمره قبر إذن لصبرت النفس ثم احتسبته ليعظم لي بعد ميتته الأجر

ولكن طوت عني المقادير أمره فمالي به منذ انتأى شخصه خبر

انظر، المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٢١.

(٢٨٢) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ٣٠.

(٢٨٣) المصدر نفسه، ج١، ٣٨.

مؤرخي الأباضية لأن ذلك لم يكن معهودًا بين القوى المتصارعة سياسيًا ومذهبيًا كما سيتضح لاحقًا.

ونظرًا لأهمية المقابر كإحدى المنشآت العامة المهمة التي تفي بحاجات الناس الجماعية، يمكن التكهن- في ظل غياب الإشارات - بأن السلطة الإسلامية الحاكمة في إفريقية خصصت أماكن بعينها للدفن بوجه عام، وربما تولت الإشراف عليها، وقبل ولوج تفاصيل بناء القبر وما طرأ عليه من إضافات على مدار الفترة المدروسة، يجب أن نعرض لأرض المقابر، التي تم **تخصيصها أوحبسها للدفن**، فقياسًا على إشارات متعلقة بمناطق أخرى من العالم الإسلامي[٢٨٤] يُفترض أن السلطة الحاكمة في إفريقية أثناء الفتوح الإسلامية، وخاصة بعد تأسيس القيروان كأول حاضرة إسلامية بإفريقية، وبعد تمام الفتح واستقرار أوضاع المسلمين قد قامت بتخصيص الأراضي الواقعة خارج أبواب المدن وصيرتها كمقابر عامة للدفن. وانطلاقا من أن القبر في الأساس حبس [٢٨٥] كالمساجد والقناطر والطرق [٢٨٦]وغيرها من منافع المسلمين؛ فقد شارك أهل البر والخير في حبس الأرض للدفن عامة، فتتواتر التفاصيل عن "عرصة محبسة للدفن" [٢٨٧]، و"مكان موقوف لدفن المسلمين" [٢٨٨]، و"فدان محبس على الدفن فيه"، وعمن "حبس أرضًا في

(٢٨٤) وردت إشارة عن وقف عمر بن الخطاب أرضا للدفن بالفسطاط سميت بالقرافة، انظر، محمد عبد الستار عثمان، **المدينة الإسلامية**، ص٧٤. كما وردت إشارة عن حبس عمر بن عبد العزيز أرضا من البطحاء المعروفة بالربض لدفن موتى المسلمين وذلك عام ١٠١هـ. انظر، ابن عذاري، مصدر سابق، ج٢، ص٢٦.

(٢٨٥) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٤-٥. والحُبس لغة تعني، ما وُقِف، والحُبس بالضم وجمعها أحباس وحبائس، ويقع على كل شيء وقفه صاحبه وقفًا محرمًا؛ حيث يحُبس أصله وتُسبل ثمرته تقربًا إلى الله تعالى. ابن منظور، مصدر سابق، م٦، ص٤٤-45 .

(٢٨٦) أبو الحسن التسولي، **البهجة في شرح التحفة (شرح تحفة الحكام)**، تحقيق، ج٢، ط١، محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م، ص٣٦٧.

(٢٨٧) أبو عمران الفاسي، **فتاوى أبي عمران الفاسي**، جمع وتحقيق، محمد البركة، دار نشر أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠م، ص١٢٨؛ البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٤٠٠.

(٢٨٨) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٤٠٦.

فحيزت واحترمت بحرمة الأحباس" [٢٨٩]. ومن أمثلة المقابر المحبسة من قبل الأفراد، مقبرة أجلو الغربية، التي كانت أرضها ملكا لأبي الحسن أفلح قاضي بني ورتيزلن وحبسها عام ٤٤١هـ/١٠٤٩ م [٢٩٠]، وكذا مقبرة الزلاج بقرية فوشانة القريبة من تونس، فهي تنسب للشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن تاج الدين (ت٦٠٢هـ/١٢٠٥م) الذي حبسها لدفن موتى المسلمين فعرفت باسمه، ودفن بها عدد كبير من الفقهاء والصالحين والعباد[٢٩١].

أما عن **شكل القبر وبنائه،** فمن الثابت أن القبر كان يحفر غالبًا لحظة الوفاة، [٢٩٢]وأن أهل الميت كانوا يشرفون بأنفسهم على حفره، [٢٩٣]وفي أحيان أخرى لجأ بعض الأفراد إلى إعداد قبورهم قبل وفاتهم، [٢٩٤]ويُرجح أن بناء القبر كان في البداية عبارة عن لحد بسيط، وأن الدفن كان وفق السنة النبوية المطهرة، ثم ظهرت بعض الأطر الفقهية التي تضبط إعداد القبر وبناءه، من ذلك التوصية بتعميق الحفر بقدر مناسب بحيث تُستر جثة الميت ويمنع من ظهور روائحها، ولا يتيح للضواري من الحيوانات نبشها [٢٩٥]، وقد ظهر في الساحة الفقهية جدال حول طريقة حفر اللحد بين التسنيم والتسطيح، ففي الوقت الذي أجاز فيه اللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) تربيع القبر وهو الزيادة على تسنيمه، كره آخرون ذلك وشددوا على ضرورة تسطيحه على أن يُرفع عن الأرض قليلًا بقدر ما يُعرف به [٢٩٦]. إلا أنه مع مرور الوقت وتطور العمران

(٢٨٩) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٨٦.

(٢٩٠) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٦٨.

(٢٩١) الوادي آشي، مصدر سابق، ص٥٤.

(٢٩٢) الوسياني، مصدر سابق، ص٤٢٠.

(٢٩٣) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٠٣.

(٢٩٤) اللخمي، **التبصرة**، ج٢، دراسة وتحقيق، أحمد عبد الكريم نجيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠١١، ص٧١٢.

(٢٩٥) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠١.

(٢٩٦) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٥

طرأ على القبر تغييرات عدة منها: البناء عليه، وتجصيصه، واتخاذ الحيطان والسقائف والشواهد، وهو ما تثبته عديد من مسائل ونوازل الفترة حول كراهة تجصيص القبر (٢٩٧)، والبناء عليه (٢٩٨)، واتخاذ الشاهد والكتب فيه(٢٩٩)، فقد ناقش الفقهاء حكم البناء على القبر وتجصيصه ووضع الشاهد، فنهى بعض المالكية أن ترفع المقابر بطوب أو بحجارة أو تبنى فيها حوائط أو تجصص أي تبيض بالجير أو التراب الأبيض، في حين أجاز بعضهم البناء إذا كانت مقابر خاصة في ملك أصحابها، أما إن كانت مقابر عامة فلم يجيزوا ذلك خشية التضييق على الناس (٣٠٠)؛ ومن ثم جاءت فتوى ابن رشد (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) بهدم ما بني فوق مقابر المسلمين من القباب والسقائف والروضات، ولا يبقى من جدرانها إلا ما يميز به الرجل قبر قريبه؛ كي لا يأتي آخر ليدفن فيه، أما إن بنيت تلك المقابر في ملك صاحب القبر، فحكمها حكم الدور، إن كان لا يأوي إليها أهل الفساد (٣٠١)، وهو نفسه ما أفتى به الفقيه المازري (ت٥٣٦هـ/١١٤٢م)(٣٠٢).

ورغم تشديدات الفقهاء ونهيهم عن المباهاة في بناء المقابر (٣٠٣)،

---

(٢٩٧) "قيل، الحجارة من الجص، وقد قصص داره، أي، جصصها ومدينة مقصصة، مطلية بالقص، وكذلك قبر مقصص، أي مطلي بالجير. وفي الحديث، نهى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-عن تقصيص القبور وهو بناؤها بالقصة". انظر، ابن منظور، مصدر سابق، ج٧، ص٧٦.

(٢٩٨) ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج١، ص٦٤٨؛ العقباني، **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق، علي الشنوفي، المعهد الثقافي الفرنسي – دمشق، ١٩٦٧، ص٧٧.

(٢٩٩) ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج١، ص٦٥٢.

(٣٠٠) المازري، مصدر سابق، ج١، ص٨٢٤؛ البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٦.

(٣٠١) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٨؛ البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٦-٥١٧؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣١٧.

(٣٠٢) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٩.

(٣٠٣) المصدر نفسه، ج١، ص٥١٦.

واعتبار البناء عليها وتجصيصها من باب البدع [٣٠٤] المخالفة للسنة [٣٠٥]، إلا أن ذلك لم يمنع أرباب الأسر الحاكمة والوجيهة وذوي الحيثيات من التأنق في بناء مقابرهم [٣٠٦] بالحجر والجير، ونقش شواهدها، وهو ما تفيده نازلة سُئل فيها الفقيه أبو الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) عمن أوصى أن يخرج من ماله مائة دينار للوصايا ويبنى منها على قبره وقبر والده حجرة بالحجر والجير، ويجعل حجر منقوش عند رأسيهما [٣٠٧]. وفي المقابل حرص أهل العلم والصلاح والولاية على بساطة قبورهم، فأصر البعض على الوصية بتسوية قبورهم بالأرض [٣٠٨]، في حين حرص آخرون على تضمين دعائهم إلى الله تلك الرغبة [٣٠٩]، ونموذج ذلك بساطة قبر القاضي حماس بن مروان المتعبد (ت٣٠٣أو٣٠٤هـ/٩١٧م أو٩١٨م) الذي لم يوجد به سوى عمود قصير لا كتابة فيه، [٣١٠]. ومن الراجح أن ما طرأ على مقابرهم من تجديد وتجصيص وتأنق وتزيين بالقناديل والشموع [٣١١]، حدث في فترات لاحقة لوفاتهم، من خلال ذويهم أو بعض أفراد المجتمع المرتبطين بهم انطلاقًا من مكانة هؤلاء الصلحاء والعباد والزهاد ورغبة في تمييز تلك المقابر لاتخاذها مزارات يُتبرك بها، ومن دلائل ذلك ما حظي به قبر الصحابي أبي زمعة البلوي من التجديد والبناء والحياطة [٣١٢]، وقبر البهلول بن راشد، الذي تم تجديده

(٣٠٤) الونشريسي، مصدر سابق، ج١١، ص١٥٢.

(٣٠٥) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٨.

(٣٠٦) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٧٠.

(٣٠٧) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٩.

(٣٠٨) ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٥هـ، ص٣٣٨.

(٣٠٩) الوسياني، مصدر سابق، ص٥٨١.

(٣١٠) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٠.

(٣١١) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٨.

(٣١٢) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٠.

على يد خليفة بن حاجي عم ابن ناجي (ت٨٣٩هـ/١٤٣٦م) بعد أن وهى[٣١٣]، وهو شأن بقية مقابر العلماء والصلحاء التي اُتخذت كمزارات، أما قبور عامة الناس فمن المؤكد أنها كانت بسيطة للغاية دون تأنق ولا تزيين ولا شاهد من الرخام وغيره[٣١٤].

يعد **شاهد القبر** أحد أهم مكوناته، لما له من أهمية في تعيين القبر، وتحديد صاحبه بحيث لا يحفظ القبر "إلا الكتابة على مشهده"[٣١٥]؛ لذا فقد اندثرت كثيرٌ من مقابر المشايخ والعلماء؛ لانعدام الكتابة عليها[٣١٦]، لاسيما مع حلول الأوبئة وغيرها من الكوارث التي أودت بحياة الكثيرين، وحالت دون وجود من يعرف ويميز القبور بعضها عن بعض[٣١٧]، ومن دلائل ذلك أنه لم يستدل على قبر الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري (ت٥٣هـ/٦٧٣م) إلا بعد أن وجدوا أثناء الحفر بلاطة مكتوب فيها "هذا قبر رويفع بن ثابت الأنصاري"[٣١٨]، وبالمثل لم يكن قبر القاضي سليمان بن عمران (ت٢٧٧هـ/ ٨٩٠م) معروفًا خلال القرن السابع الهجري إلا بعد أن وجد الناس شاهده؛

---

(٣١٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٩.

(٣١٤) يتضح ذلك من إشارة متأخرة عن فترة الدراسة تعود إلى عصر الموحدين مفادها أن أبا يوسف يعقوب الموحدي لما أمر بقتل أخيه الرشيد وعمه سليمان، أرسل إليه القائم بقتلهما يخبره أنهبنا قبريهما بالكذان والرخام، فرد عليه أبويوسف مستنكرا "ما لنا ولدفن الجبابرة. . . . فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين". انظر، المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، ط١، تحقيق، صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٢٠٢.

(٣١٥) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٩٦.

(٣١٦) المصدر نفسه، ج٣، ص٨١.

(٣١٧) المصدر نفسه، ج٣، ص٩٦.

(٣١٨) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٨٢؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٢٤-١٢٥.

فاشتهرت بذلك معرفة قبره معرفة تامة [٣١٩]، وهو ما ينطبق على قبر الشيخ علي بن محمدالفرياني (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)الذي اندثر بمرور الوقت، ولم يستدل عليه إلا عن طريق الصدفة عندما حفر الناس قبرًا لميت فوجدوا شاهدًا عليه اسمه وتاريخ وفاته؛ فحددوا بذلك موضع القبر [٣٢٠]، كما استطاع ابن ناجي أن يُنهي التباسَ الناس في تحديد قبر أبي عبد الله محمد بن عبد الله المالكي، وقبر ولده أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي ـ صاحب رياض النفوس ـ فكان الشائع لدى الناس أن المدفون في جبانة باب تونس إلى جوار القابسي هو الأب لأنه صاحبه وخديمه، وأن المدفون بجبانة باب نافع إلى جوار سحنون هو الابن، ثم اتضح لابن ناجي بعد فحص شاهدي القبرين أن شاهد القبر الموجود إلى جوار سحنون مكتوب فيه: "هذا قبر الشيخ الفاضل أبي عبد الله محمد بن عبد الله المالكي المتوفى ٤٣٨هـ" فتبين بهذا أن المدفون عند القابسي هو الابن أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبد الله المالكي؛ لأنه ليس على قبره كتابة، فـ"الكتب في المشهد مقدم على غيره" [٣٢١]؛ ومن ثم استفاد من ذلك محقق كتاب رياض النفوس لأبي بكر المالكي في ضبط سنة وفاته، بعد أن اختلط الأمر على كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين [٣٢٢].

رغم تلك الأهمية المتعاظمة لشاهد القبر، إلا أن بعض فقهاء المالكية لم يستحبوا اتخاذها استنادًا إلى أنه ليس "مما يعود منه نفع للدنيا ولا للآخرة" حسب فتوى أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) [٣٢٣]، بل لم يتردد بعضهم في الفتوى بوجوب هدم كل ما يبنى على المقابر من السقائف،

(٣١٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٩٦.

(٣٢٠) مقديش، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٠.

(٣٢١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٤.

(٣٢٢) راجع، المالكي، **رياض النفوس**، مقدمة التحقيق، ج١، ص١٩م – ٢٢م.

(٣٢٣) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٩.

والقباب، والروضات، وحط سقفها، وما ارتفع من حيطانها، ولا يترك منها إلا ما أباحه أهل العلم من الجدار اليسير لتمييز قبور الأهل، والعشائر [٣٢٤]، في حين أجاز بعض المالكية اتخاذه كعلامة يُهتدى بها [٣٢٥]، لاسيما وأن قبور أئمة المسلمين شرقًا وغربًا مكتوب عليها، فهو من باب الحلال المأخوذ عن السلف حسب رأي المازري (ت٥٣٦هـ/١١٤٢م) [٣٢٦]. أما الأباضية فقد تورعوا عن اتخاذ الشاهد واكتفوا بعلامات يخطوها على القبور لتمييزهالاسيما مقابر كبار العلماء والمشايخ، ونموذج ذلك الخطوط الثلاثة التي خطها الناس على قبر حبيب بن زلغين، والتي بقيت ببركته تميز قبره، [٣٢٧]وإن كانت تلك الخطوط قد بقيت ببركة بعض العلماء لفترة من الزمن إلا أنها قطعا كانت عرضة للاندثار.

وعلى الجملة فقد اتخذ أهل إفريقية شواهد القبور من أنواع الحجر[٣٢٨]، والرخام [٣٢٩]حسب حيثية ومكانة المتوفى، فقد تدرج الأمر من قبور بلا شواهد [٣٣٠]، إلى شواهد متواضعة لاكتابة فيها [٣٣١]ـ ربما كانت من نوع متواضع من حجارة مُحيت مع مرور الوقت بتأثير العوامل المناخية ـ إلى

(٣٢٤) ابن رشد القرطبي، **مسائل أبي الوليد ابن رشد**، ج٢، تحقيق، محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل، بيروت – دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٣، ص١٠٩٣.

(٣٢٥) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٩.

(٣٢٦) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٩.

(٣٢٧) الوسياني، مصدر سابق، ص٦١٦.

(٣٢٨) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٩.

(٣٢٩) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٨٤، ج٣، ص٨١.

(٣٣٠) المصدر نفسه، ج٣، ص٨١.

(٣٣١) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٣٠.

أخرى صُنعتْ من ألواح كبيرة من الرخام منقوش فيها اسم المتوفى [٣٣٢]، وأخرى كتبت من الجهتين سجل فيها اسم المتوفى وتاريخ وفاته وغير ذلك من التفاصيل، وقد تميزت بإحكام النقش وحسن الخط، كشاهد قبر القاضي أبي محمد عبد الله بن هاشم بن مسرور (ت٣٦٣هـ/٩٧٤م) الذي يصفه ابن ناجي بأنه لا يوجد "بجبابين القيروان مثله"، وقد عَزىَ كتابة الشاهد على الوجهين إلى مكانة القاضي ورفعته، وخشية أن يسقط اللوح فيعتقد الناس أنه لا كتابة فيه ويندثرذلك القبر كغيره من القبور [٣٣٣]. وغالبًا ما كان الشخص يوصي قرابته بوضع الشاهد على قبره بعد وفاته [٣٣٤]؛ ليضمن بذلك نوعًا من الحضور بين من فقدوه، إلا أنه في أحيان أخرى عمد البعض إلى إعداد شاهد قبره وكتابة نصه الجنائزي قبل وفاته، وهو ما يستشف من خلال أبيات للشاعر القيرواني عبد الله بن فلاح سجلها على رخامة لتوضع على قبره جاء فيها:

أيا من رأى قبرًا تضمن رمسه أَخا سكـرةٍ مَا إِن يفِيق إِلَى الْحَشْر
وَمَا سَاءَنِي الأحباب فِي برزخ البلى فَأَصْبَحت لَا أزداد إِلَّا على عقر
وَأَصْبح وَجْهي بعد أَي نضارةٍ كَسَاه البلى ثوبا يجـد مَعَ الدَّهْـر [٣٣٥]

حفظتْ لنا المصادر التي أرخت للفترة المدروسة إشارات عديدة عمن اتخذوا شواهد قبور، فضلًا عن نصوص ومحتويات شواهد أخرى، ومن أمثلة ذلك: أن يزيد بن حاتم وأخيه روح قد ماتا بالقيروان ودفنا بِبَاب سلم وعلى

(٣٣٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٨٤.

(٣٣٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٨١.

(٣٣٤) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٩؛ ابن الأبار، **المقتضب من تحفة القادم**، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص٢٤.

(٣٣٥)ابن رشيق القيرواني، **أنموذج الزمان**، ص١٩٧؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج١٧، تحقيق، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠، ص٢١٧.

قبريهما سارية مكتوب فيها اسميهما [٣٣٦]، وعلى قبر سليمان بن عمران (ت٢٧٧هـ/ ٨٩٠م) لوح عند رأسه مكتوب فيه: "هذا قبر سليمان بن عمران القاضي توفي ليلة السبت لسبع بقين من صفر سبع وسبعين ومائتين" [٣٣٧]، كما جاء على شاهد قبر الفقيه أبي حفص عمر بن محمد العطار (ت٤٢٧هـ أو ٤٢٨هـ) بباب سلم، أبيات شعرية غرضها العظة والعبرة، منها:

الموت بحر عامق موجه تحار فيه حيلة السابح

يا نفس إني واعظ فاسمعي مقالة من مشفق ناصح

ما يصحب الميت في قبره غير التقى والعمل الصالح [٣٣٨]

ومما كتب على شاهد قبر الشيخ أبي بكر الفرياني: "هذا قبر الفاضل المرحوم المنعم الإمام الفقيه العارف بالله تعالى سيدي الشيخ الفرياني" [٣٣٩]. ويتضح من أمثلة هذه الشواهد أنها أثبتت أسماء وألقاب المتوفين، فضلًا عن تواريخ وفاتهم، والدعاء لفائدتهم، كما تضمنت صفات بعضهم وإشارات عن وظائفهم، ناهيك عن بعض دلائل المكانة العلمية أو الدينية أو الاجتماعية لأولئك المتوفين [٣٤٠].

تجدر الإشارة أن محاور النصوص الشاهدية الآنفة شكلت إلى جانب محاور أخرى ـ كالبسملة، والتصلية وذكر آية أو أكثر من آيات القرآن وصيغة

---

(٣٣٦)الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق، عبدالله العلي الزيدان و عز الدين موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص١٣٦؛ ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص٣٥٨.

(٣٣٧) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٩٦.

(٣٣٨) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٤.

(٣٣٩) مقديش، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨١. انظر أمثلة أخرى عديدة لشواهد القبور، أبو الطاهر الفارسي، **مناقب محرز بن خلف**، ص١٦٢؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٣.

(٣٤٠) عن محتوى شاهد القبر انظر: ملحق (٢).

الشهادة ـ مقومات النصوص الشاهدية بوجه عام، مع التأكيد أن هذه المحاور كانت قابلة للتحوير من حيث الترتيب والصيغة والإضافات حسبما تمليه الأساليب المتبعة، والفترات التاريخية المختلفة، إذ تميز كل عصر بأسلوب خاص في تأليف نصوص شواهد القبور الإفريقية بحيث كان النص الشاهدي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالظروف السياسية والاقتصادية والدينية(٣٤١).

فمثلا يمكننا أن نستشف من تلك الشواهد بعض الإشارات عن الأزمات السياسية والدينية، إذ تبرز في فترات بعينها بعض الجمل التي تعبر عن الجدل الفكري الذي عرفته إفريقية حول موضوع خلق القرآن، فتظهر نصوص قبريات تؤكد أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق (٣٤٢). ورد أيضا في قبرية أبي محمد حميد أنه استشهد عام ٢٩٣هـ/٩٠٦م دون توضيح، وهو ما يشير حتما إلى فترة الصراع والمواجهات العسكرية التي استعرت بين الأغالبة وأبي عبد الله الشيعي أواخر القرن الثالث الهجري (٣٤٣). كما واكب انتقال الحكم من الأغالبة إلى الفاطميين ظهور أدعية شيعية المعتقد مثل: "وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين وسلم" أو "وصلى الله على محمد وعلى أهل بيته وعلى صحابته" أو "وصلى الله على آله الطيبين الأخيار" (٣٤٤). ناهيك عما صاحب قيام الدولة الفاطمية الشيعية من اضطرابات تجلت في معارضة السكان السنة للمذهب الشيعي، وهو ما ظهر جليا في قبريات الفترة ومن ذلك: " مات على الإسلام والسنة والجماعة، مات وهو مصر على بغض أعداء الله بني عبيد ولعنتهم" أو "مات على محبة الله ومحبة رسوله وأصحابه الأطهار وبغض بني عبيد الكفار" (٣٤٥).

---

(٣٤١) خالد مودود: **"النقائش العربية بإفريقية وتطورها من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري"**، ضمن أعمال المؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي "النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي"، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٨٨، ص٤١.

(٣٤٢) المرجع نفسه، ص٤٢.

(٣٤٣) نصر الحنزولي، **بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش**، ص٩٣. انظر ملحق (٣).

(٣٤٤) خالد مودود، مرجع سابق، ص٤٢.

(٣٤٥) خالد مودود، مرجع سابق، ص٤٢.

لا ريب إذًا أن ثراء تلك الشواهد القبرية وأمثالها قد أغرى كثيرا من الباحثين لإجراء عديد من الأبحاث والدراسات المهمة على صعيد التاريخ الاجتماعي والأثري والفني والزخرفي [٣٤٦]، فقد وصف خالد مودود مجموعة شواهد قبور إفريقية الباقية وعددها ثلاثة آلاف شاهد بأنها: "من أهم وأجمل المجموعات التي عثر عليها بالمغرب الإسلامي"؛ لما تتميز به من تعدد الأشكال [٣٤٧] وثراء النصوص وأناقة كتابتها الزخرفية؛ مما أهلها لتكون مصادر ثابتة ووثائق تاريخية حافلة بشتى المعلومات، فضلا عن كونها سجلا أصيلا لأنواع متميزة من الخط الكوفي العربي وعناصره الزخرفية [٣٤٨]. يبدو أيضا أن عدم خضوع النصوص الجنائزية لأي مراقبة جعلها لسان حال أصحاب القبور أو لسان حال أهلهم من بعدهم، أو حتى لسان حال نقاشي تلك الشواهد [٣٤٩]؛ ومن ثم فهي تمثل إحدى أهم المصادر الأثرية في الدراسات الاجتماعية، كما أنها تعد بمثابة المصدر المدعم لما ورد بالمصادر المكتوبة أو المعدل له [٣٥٠].

---

(٣٤٦) انظر الدراسات السابقة في مقدمة هذه الدراسة، راجع أيضا سجلا بالدراسات الأجنبية، نصر الحنزولي، **"بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري"**، ص١٠٨.

(٣٤٧) عن أشكال شواهد القبور المتعارف عليها بإفريقية حتى القرن الخامس الهجري انظر: ملحق (٤)، (٥)، (٦).

(٣٤٨) **"النقائش العربية بإفريقية وتطورها من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري"**، ص٣٩.

(٣٤٩) لطفي عبد الجواد، **"الطاعون بإفريقية من خلال شواهد قبور قيروانية جديدة"**، ص٩١.

(٣٥٠) نصر الحنزولي، **"بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري"**، ص٧٩.

جدير بالذكر أن دراسة اعتمدت على ألقاب المتوفين المنقوشة على شواهد القبور بالقيروان ـ كالطراز والبزاز والصباغ والوراق ـ لرصد الحرف السائدة بأسواقها، انظر، عبد الحميد البحروني، **"أسواق مدينة القيروان في العصر الوسيط من خلال المصادر والآثار"**ضمن كتاب، القيروان عاصمة حضارية في تاريخ المغرب الإسلامي، المطبعة الرسمية، تونس، ٢٠٠٦، ص ص ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ٧١.

خامسًا: عادات الدفن ومدى ارتباطها بالمستوى المادي للوسط الاجتماعي:

عادة ما كان يتم الدفن في المدينة التي تحدث فيها الوفاة، إلا أن يكون الميت قد أوصى بدفنه في مكان آخر كما سبقت الإشارة. وقد اشتهر أهل إفريقية بتحري الدفن باتجاه القبلة، وهو ما أكده البرزلي (ت٨٤٤هـ/١٤٤٠م) بمعاينته لمقبرة الزلاج التي رأى بها قبورًا بعضها قائم فوق بعض لهذا السبب [٣٥١]. تبين كذلك من خلال معاينة النصوص أن العلماء والصالحين كانوا يدفنون بجوار بعضهم البعض سواء بوصية [٣٥٢] أو بغير وصية [٣٥٣]، فنجد مثلا بجبانة باب نافع قبر عبد الله بن غانم وإلى جواره قبر سحنون بن سعيد وابنه محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس وحماس بن مروان وأبي إسحاق السبائي وغيرهم كثيرين [٣٥٤]، كما كان الناس بوجه عام يدفنون موتاهم في جوار العلماء والعباد والصلحاء ـ إن تيسر لهم ذلك ـ أو يتمنون ذلك رغبة في أن تشملهم شفاعتهم، التي كانوا يتناقلون أخبارها؛ من منطلق ذيوع صلاح وتقوى وورع أصحاب تلك القبور [٣٥٥].

كان من المعهود عند عموم الناس أيضا أن يتولى القرابة إنزال الميت في لحده [٣٥٦]، أو يتولاه أحد الأصدقاءالمقربين [٣٥٧]، وفي نطاق ضيق يطلب بعض الغرباء ممن ليسوا من قرابة الميتمن أهلهإنزاله في القبر رجاء التماس

---

(٣٥١) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٧.

(٣٥٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٣.

(٣٥٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٠.

(٣٥٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٤.

(٣٥٥) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٦٤٦؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٧١، ج٢، ص٢٧٩، ٢٨٠.

(٣٥٦) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٨٩٩.

(٣٥٧) الشماخي، مصدر سابق، ص٤٠٢.

الأجر والبركة لاسيما إن كان من أهل الصلاح والولاية، نموذج ذلكتلك الرواية التي تشير إلى رغبة رجلين من أهل تملوشاية [٣٥٨]في إنزال الفقيه الأباضي أبي محمد التمصمصي (ق٤هـ/١٠م) للحده؛ فما كان من أهله إلا أن لبوا لهما تلك الرغبة [٣٥٩]. أما في حالة تولي حفار القبر إنزاله فكان يوصَى بتلقيه برفق وتؤدة؛ لأن رميه بشدة يعد خرقًا لحرمة الميت [٣٦٠]، وفي حال كون الميت امرأة يُنزلها زوجها مع ذي محرم منها، فإن لم يكن فأهل الفضل والصلاح من الحاضرين [٣٦١].

وبخصوص دفن الأمراء ورجال السلطة، فكان لا يحضره إلا أخص المقربين، نظرا لأنهم لا يُدفنون في مقابر العامة؛ لذا كان من تقاليدالدفن عند الفاطميين، أن يتولى ولي العهد دفن الخليفة مع قلة من خاصة الخليفة، فحينما عزم القائم بأمر الله على دفن الخليفة عبيد الله المهدي اختار لشهود مراسيم الدفن خديمهم الكاتب جوذر، لمكانه من الخليفة ومن نفسه [٣٦٢].

وقد أوجب العلماء أن يتم إدخال الميت إلى قبره مستويًا لا منكوسًا على رأسه اتباعًا للسنة النبوية المطهرة [٣٦٣]على أن يُضجع ضجعة النائم على جانبه الأيمن وهو المستحب [٣٦٤]. تناثرت كذلك إشارات عدة في كتب النوازل حول عدم جواز دفن أكثر من شخص في قبر واحد في وقت واحد إلا

---

(٣٥٨) أو تملشايت، مدينة تقع على قمة جبل قرب فرسطاء بجبل نفوسة. انظر، البغطوري، مصدر سابق، ص٦٨، هامش (٢٥٢).

(٣٥٩) البغطوري، مصدر سابق، ص٦٨.

(٣٦٠) ابن الحاج، **المدخل**، ج٣، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت، ص٢٥٩.

(٣٦١) ابن أبي زيد، مصدر سابق، ج١، ص٦٤٥؛ البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٢.

(٣٦٢) الجوذري، **سيرة جوذر**، ص٣٩.

(٣٦٣) ابن الحاج، مصدر سابق، ص٢٥٩.

(٣٦٤) اللخمي، مصدر سابق، ج١، ص٣٠٨.

لضرورة ضيق المقابر، حيث أجاز الفقهاء أن يدفن اثنان معا على أن يلي الأفضل منهما القبلة [٣٦٥]، كما شدد الفقهاء على عدم الحفر على ميت لدفن آخر إلا إذا فني الأول، وإن بقي شيء من عظامه فالحرمة قائمة كجميعه فلا يجوز الحفر عليه [٣٦٦]، وإن وقع ودُفن عليه، فإنه لا يجوز نبش القبر مرة أخرى لإخراج المدفون الأحدث [٣٦٧]، وفي حال كان المدفون امرأة فإنه لا يجوز نبش القبر أبدًا استنادًا إلى أن "حرمتها ميتة كحرمتها حية" فلا يحل لأحد أن يكشفها ويطلع عليها [٣٦٨].

وفي الإطار ذاته ظهرت مسألة نقل الميت بعد دفنه إلى قبر آخر، وإن لم يستحسنها بعض الفقهاء كاللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م)إلا أنه رخص فيها حيث "لا يبلغ التأثيم فاعله"، فأفتى بنقل الميت في حال دفنه دون أن يُصلي عليه أو كونه لم يتغير تغيرا يُخفى معرفته، أما إن تغير حيث لم يعد يُعرف؛ تُرك ولم يُنقل من قبره [٣٦٩]. ويبدو أن ذلك الموقف الفقهي هو الذي شجع الناس في بعض الأحيان على نقل موتاهم بعد دفنهم، نموذج ذلك أبي القاسم عبد الخالق بن خلف بن شبلون (ت٣٩٠هـ/١٠٠٠م) الذي دفن بداره ثم نقل إلى باب سلم [٣٧٠]، وهو ما ينطبق على الفقيه أبي علي الحسن بن خلدون البلوي (ت٤٠٧هـ/١٠١٦م) [٣٧١].

كما كان من مظاهر مبالغة الفاطميين في تقديس الخلفاء، حمل توابيت

---

(٣٦٥) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٢، .

(٣٦٦) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٤٥٧.

(٣٦٧) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٢، .

(٣٦٨) ابن رشد، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٥٣.

(٣٦٩) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٠، .

(٣٧٠) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٤.

(٣٧١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٥.

موتاهم معهم أينما حلوا، فقد ورد أن المعز لدين الله، حينما خرج من بلاد المغرب إلى مصر عام 362هـ/ 972م حمل معه توابيت من سبقه من الخلفاءكالمهدي والقائم والمنصور [٣٧٢].

ويبدو أن الاتجاه المحافظ عند الأباضية دفعهم إلى اتخاذ السترة لقبور النساء، وهو ما لاقى ترحيبا في وسط النساء حتى صار ذلك أمنية للصالحات منهن [٣٧٣]؛ ثم سرعان ما اتخذوها للقبور عامة رجالًا ونساءً في بعض الأماكن، ونموذج ذلك وضع أصحاب أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر (ت٥٠٤هـ/١١١١م) سترة على قبره، ولما استنكر البعض ذلك لأنها تتخذ للنساء؛ رد آخرون أنهم يتخذونها للرجال والنساء، فهو من وجهة نظرهم " أحسن من أن لا تكون سترة" له [٣٧٤].

يتضح كذلك من خلال معاينة نصوص الفترة، أن **التمايز الطبقي** ألقى بظلاله على ظروف الدفن الأخرى كجهاز الميت وكفنه وجنازته مثلما انعكس سابقًا في بناء القبر وتزيينه، فلما كان "الناس على قدر أحوالهم في الدنيا" [٣٧٥] فهم كذلك في جهازهم وكفنهم بعد مماتهم، فتتواتر التفاصيل عن تبرع أهل الخير والإحسان بجهاز ودفن الفقراء من الناس [٣٧٦]، فتلك رواية تشير إلى فقير أسود لم يمتلك ما يُكفن به؛ فكفنه الفقيه عبد الله بن فروخ (ت١٧٥هـ/٧٩١م) في كساء أسود، بعد أن غَسَّلَه في حجرة خربة قرب باب نافع [٣٧٧]، وبالمثل بلغ

(٣٧٢) المقريزي، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج١، ط١، تحقيق، جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص١٣٤.

(٣٧٣) البغطوري، مصدر سابق، ص٨٨.

(٣٧٤) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤٥.

(٣٧٥) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٦.

(٣٧٦) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١١.

(٣٧٧) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص١٨٥.

الفقر بمحمد بن أحمد الخياط المعروف بابن قمرة (ت٣٨٦/٩٩٦م) أنه لم يكن عنده مايكفن به ولا ما يُحفر به قبره؛ فكفنه الفقيه محمد بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦/٩٩٦م) [٣٧٨]. وعادة ما كان يتم تكفين العُبّاد والصلحاء في ملابسهم التي كانوا يتعبدون بها [٣٧٩]. ولربما أوصى آخرون ببيع بعض أغراضهم عند الموت لشراء الكفن، مثلما هو حال القاضي حماس بن مروان المتعبد (ت ٣٠٣أو٣٠٤هـ/٩١٧م أو٩١٨م) الذي أوصى أصحابه أن يبيعوا بعضًا من كتبه لتجهيز كفنه [٣٨٠]، ويذكر المالكي أن أبا الحسن الكانشي (ت٣٤٧هـ/٩٥٨م) لم يكن يملك عند موته سوى دينار ونصف كفن بهما [٣٨١]، وكان قد أوصى أن يُكفن في ثلاثة أثواب يُدرج فيها إدراجًا [٣٨٢].

يظل الاعتقاد جازمًا أن الوباء كان أكثر فتكًا وأشد وطأة على الأوساط الشعبية، حيث يبلغ الموت في الناس مبلغًا كبيرًا، حتى يعجزون عن دفن موتاهم، وهو ما حدث في وباء ومجاعة عام ٣٠٣هـ/٩١٥م [٣٨٣]، ولعل فيما ذكرته المصادر عن تبرع السيدة أم يوسف زليخة زوجة المعز بن باديس "بستين ألف كفن" في وباء عام ٤٢٥هـ/١٠٣٣م [٣٨٤]، للموتى الذين خرجوا من باب واحد من أبواب القيروان ـ حسب رواية الوسياني ـ [٣٨٥] دليل على عدم قدرة عامة الناس على جهاز وتكفين موتاهم.

---

(٣٧٨) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٩.

(٣٧٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٣.

(٣٨٠) المصدر نفسه، ج٢، ص١٢٠.

(٣٨١) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٢.

(٣٨٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٥.

(٣٨٣) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٧٣؛ ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٩٨.

(٣٨٤) الشماخي، **تراجم**، ص٣٩٩.

(٣٨٥) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٨١.

وفي المقابل نلمح تمايزًا طبقيًا واضحًا في جهاز وكفن علية القوم وعلى رأسهم الطبقة الحاكمة ومن يدور في فلكها، ففي الوقت الذي أظهرت فيه المعطيات الآنفة أن العوام كانوا ينتظرون من يتصدق بجهازهم أو يدفنون بلا غسل أو صلاة، وفي أخاديد جماعية زمن الوباء (٣٨٦)، تشير المصادر أن الزعيم الزناتي سعيد بن خزرون (ت٣٨٣هـ/ ٩٩٣م) كُفن في سبعين ثوبًا (٣٨٧)، وحين توفيت السيدة زوجة نصير الدولة باديس عام ٤١٢هـ/١٠٢١م كانت لها جنازة لم ير مثلها، حيث "كُفنت فيما لم يُذكر أن ملكًا من الملوك كفن في مثله"، وجُعلت في تابوت من عود هندي مرصع بالجوهر، بلغت مساميره ألفي دينار، قَيَّمه من حضره من التجار بمائة ألف دينار (٣٨٨). أما السيدة أم ملال عمة المعز بن باديس (ت ٤١٤هـ/١٠٢٣م)، فقد ألح الأخير على المبالغة في الإنفاق على جنازتها وفاء منه لجميلها في تربيته وتنشئته ورعايته، فحسب رواية الرقيق القيرواني (٣٨٩)كفنها المعز بما قيمته مائة ألف دينار، وعمل لها تابوتًا من العود الهندي مرصعًا بالجواهر وصفائح الذهب وسُمّر التابوت بمسامير من الذهب بلغ وزنها ألف مثقال، وأُدرجت في مائة وعشرين ثوبًا، وذُرَّ عليها من المسك والكافور مالا حد له، وقُلد التابوت بإحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر، ثم أمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت لإطعام الناس، وفرق في مأتمها على النساء المعوزات عشرة آلاف دينار؛ مما حدا بابن عذارى أن يعلق على الجنازة بقوله أنه: "لم ير لملك ولا لسوقة مثلها" (٣٩٠). ويبدو أن المغالاة في أبهة الجنائز عند

(٣٨٦) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٩٧. .

(٣٨٧) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٤٦.

(٣٨٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٠.

(٣٨٩) نقلا عن ابن أبى دينار، مصدر سابق، ص٨٣.

(٣٩٠) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٢.

بني زيري على ذلك النحو هو ما دفع ابن خلدون إلى اعتبارها أحد أهم دلائل ترفهم وبذخهم وأبهة حكمهم، لاسيما عهد المعز بن باديس الذي يعد "أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه"، ومن الدلائل التي ساقها على ذلك أيضا ـ نقلا عن الرقيق القيرواني ـ أنّ بعض توابيت الكبراء منهم كانت مصنوعة من العود الهندي بمسامير الذهب (٣٩١). ولعل تلك الإشارة مع سابقتها الخاصة بزوجة نصير الدولة باديس هما الإشارتان الوحيدتان اللتان توفرنا عليها فيما يخص الدفن في التوابيت وهو ما لا يستبعد عند باقي الأسر الحاكمة، والعائلات الوجيهة، لاسيما وقد وردت إشارة سابقة عن نقل جثامين خلفاء الفاطميين إلى مصر في توابيت على يد المعز لدين الله (٣٩٢).

ولا يفوتنا في هذا المضمار أن نشير إلى حرص رجال السلطة في بعض الأحيان وعلى مدار الفترة المدروسة، على إرسال الكفن ولوازم الغسل لبعض مشاهير العلماء والصلحاء والقضاة؛ تقديرًا لشخوصهم وعرفانًا بمكانتهم الرفيعة في المجتمع، وهو ما كان يُقابَل من قِبل ذوي المتوفى بالرفض من باب التورع، وغالبا بناء على وصية المتوفى قبل وفاته؛ لذا كانوا حريصين على الإسراع في جهاز الميت والخروج به للدفن احترازًا قبل أن ترسله السلطة، نموذج ذلك القاضي أحمد بن محرز (ت٢٢١هـ/٨٣٦م) الذي توقع أن يرسل إليه الأمير الأغلبي زيادة الله الثاني (٢٤٩-٢٥٠هـ/٨٦٣-٨٦٤م) كفنًا وحنوطًا؛ فأوصى عند احتضاره أنه إن مات تُكتم وفاته ويُسرع بغسله وتكفينه والصلاة عليه خوفًا من أن يكفنه الأمير ويصلي عليه، فاتفق أن أرسل زيادة الله خلف الخادم بمسك كثير وكفن عدته اثنا عشر ثوبًا، فقيل

(٣٩١) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج٦، ط٢، تحقيق، خليل شحادة، دار الفكر، بيروت١٩٨٨، ص٢١٠.

(٣٩٢) المقريزي، مصدر سابق، ج١، ص١٣٤.

له كفناه فذر الخادم المسك عليه [٣٩٣]. وبالمثل لما مات القاضي سحنون بن سعيد (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) أرسل الأمير محمد بن الأغلب (٢٢٦-٢٤١هـ/٨٤١-٨٥٦م) بكفن وحنوط؛ فاحتال ابنه محمد حتى كفنه في غيره، وتصدق بما أرسله الأمير [٣٩٤]. كما بادر أصحاب أبي إسحاق السبائي (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م) إلى تغسيله وتكفينه قبل أن يوجه إليهم المعز الفاطمي (٣٤١-٣٦٢هـ/٩٥٢-٩٧٢م) كفنًا على عادتهم، ولما أرسل لهم الكفن قطعوه قطعًا قطعًا [٣٩٥]. وفي المقابل اضطر بعض ذوي الموتى قبول ما ترسله السلطة من كفن وطيب على نطاق ضيق للغاية، وهو ما حدث إثر وفاة الفقيه أبي ميسرة أحمد بن نزار (ت٣٣٨هـ/٩٥٠م) الذي لم يكن يرى الخروج على الفاطميين؛ لذا أرسل له الخليفة الفاطمي إسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ/٩٤٥-٩٥٢م) كفنًا وطيبًا، فوافاه الرسل على النعش فأنزلوه في درب ابن دينار ووضعوا عليه الكفن [٣٩٦].

سادسا: التعدي على المقابر وتصدي الفقهاء:

تعرضت مقابر إفريقية لضروب من **الأخطار الطبيعية والتعديات البشرية**، فقد لعبت العوامل المناخية دورًا كبيرًا في اندثار كثير من القبور، في حين تم تدارك بعضها بإعادة بنائها [٣٩٧]، وكان لأخطار الأمطار والسيول النصيب الأكبر في الإضرار بتلك المقابر، نموذج ذلك قبر راعي لأبي عبد الله ابن محمد التغرميني (ق٣هـ/٩م)حيث كشف السيل عنه بعد دفنه بفترة [٣٩٨]،

(٣٩٣) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٠٠؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٠٦.
(٣٩٤) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٢؛ ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩.
(٣٩٥) القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٧٥.
(٣٩٦) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٢؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٥٦.
(٣٩٧) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٠، ج٣، ص١٣.
(٣٩٨) البغطوري، مصدر سابق، ص١٤٦؛ الشماخي، مصدر سابق، ص١٨٤. النعش سرير من الخشب يحمل عليه الميت. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ج٦، ص٣٥٥.

وهو ما ينطبق على قبر أبي جعفر القصري (ت٣٢١هـ/ ٩٣٣م) الموجود بباب سلم على قارعة الطريق خلف المصلى وكان قد انقعر لكثرة الأمطار [٣٩٩]. ويبدو أن مناقشة فقهاء المالكية لمسألة "من دفن فأكله السبع أن كفنه لورثته"[٤٠٠]، تشي بتعرض جثث الموتى لأخطار الحيوانات المفترسة، وربما كانت الرغبة في مواجهة تلك الأخطار وراء حث رجال الحسبة الحفارين على ضرورة تعميق حفرة القبر حتى لا تتمكن السباع والكلاب من نبشها فضلًا عن تجنب مشكلة الأمطار الغزيرة [٤٠١].

أما **التعديات البشرية**، فيمكن القول أن امتداد العمران وزحفه حتى اقترابه منها كان من أهم أسباب تلك التعديات [٤٠٢]، ناهيك عن المقابر التي اتخذت في الأساس داخل المدن ـ كما سبقت الإشارة ـ ومن أبرز تلك التعديات اتخاذها سكنًا من قبل البعض [٤٠٣]، مع ما يتبع ذلك من انتهاك حرمتها بأي وجه من الوجوه من قبل الأحياء؛ وهو ما تصدى له فقهاء المالكية من خلال الحث على احترامها وتعظيمها [٤٠٤]؛ لأن حرمة المسلمين موتى كحرمتهم أحياء [٤٠٥]، فشددوا على عدم التعرض لحرمة الميت من

---

(٣٩٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٣. التابوت لغة هو الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرها تشبيها بالصندوق الذي يحرز فيه المتاع، وكذلك هو صندوق خشبي تحفظ فيه جثامين الموتى. انظر: ابن منظور، مصدر سابق، ج٢، ص١٧، ج١٣، ص١٥.

(٤٠٠) ابن فرحون، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٧.

(٤٠١) السقطي، **في آداب الحسبة**، المطبعة الدولية، باريس، ١٩٣١، ص٦٨؛ ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧٠؛ خليل بن إسحاق، **التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب**، تحقيق، أحمد بن عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ٢٠٠٨، ج٢، ص١٦٨.

(٤٠٢) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٨.

(٤٠٣) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص١٢٣، ج٢، ص٣٠٥؛ ابن عبدون، مصدر سابق، ص٢٦؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠.

(٤٠٤) ابن الحاج، مصدر سابق، ج٤، ص٢٣٨.

(٤٠٥) ابن رشد، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٥٣؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٥.

ممارسة الجلوس والاتكاء بالمقابر أو دخولها بالنعال أو اتخاذها طريقًا للسير[٤٠٦]، أو بناء حوائط فيها أو غرسها [٤٠٧]، أو قضاء الحاجة فيها [٤٠٨]، والضحك عندها أو اتخاذها مجلسًا للمحدثين من القصاص [٤٠٩]. وهو ما نجد له نظيرا في الوسط الأباضي، حيث كان فقهاؤهم وعزابتهم حريصين على تعلم كل المسائل المهمة المتعلقة بالمقبرة والاستفادة منها كـ ". . الطريق في المقبرة، ونخلة المقبرة، وغار المقبرة، وكذلك بئر المقبرة" ووضع الأطر التي تحدد علاقة الأحياء بالمقابر، وممن كان شديد الاهتمام بتلك المسائل الفقيه أبي إسماعيل البصير (ط٩، ٤٥٠-٥٠٠هـ) [٤١٠].

يمكن الجزم أيضا أن **التعدي على المقابر تم في بعض الأحيان دون قصد،** فقد حدَّث بعض أصحاب أبي العرب تميم (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) أنهم حضروا حفر قبر في البلوية فحفروا في أرض شديدة لم يحسبوا أن أحدا حفر فيها من قبل فاكتشفوا رجلًا مدفونًا [٤١١]. وربما يحدث أثناء إعادة بناء وإصلاح المقابر المتضررة مع مرور الزمن أن يُكشف دون عمد عن بعض أجزاء الميت مثلما حدث مع جعفر بن نظيف عندما هم بإصلاح قبر أبي جعفر القصري (ت٣٢١هـ/٩٣٣م) فرأى رجله دون قصد وهو يرفع الحجر الواقع عليه [٤١٢]. وبالمثل عندما قام أبو عبد الله محمد بن أبي سهل الصوفي (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) بإصلاح كوخه الذي اتخذه في المقابر، أصابت أداة الحفر عظم ساق ميت فكسرته [٤١٣].

---

(٤٠٦) المازري، مصدر سابق، ج١، ص٨٢٤، ١١٩٩.
(٤٠٧) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٢؛ اللخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٧١٢.
(٤٠٨) ابن الحاج، مصدر سابق، ج١، ص٣١٣
(٤٠٩) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٨.
(٤١٠) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤١٢.
(٤١١) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٩.
(٤١٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٣.
(٤١٣) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٠٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠.

تتواتر كثير من الإشارات حول **أشكال التعدي المتعمدة** من الناس تجاه المقابر، وهو ما دفع الفقهاء إلى التصدي بكل صرامة لتلك التجاوزات عبر عديد من فتاوى النوازل، ومنها مسألة أن **يَدفن الرجل في قبر غيره،** والحقيقة أن القاعدة الفقهية تؤكد أنه ليس لأحد أن يدفن في مقبرة غيره، إلا أن يضطر إلى ذلك فإن اضطُر لم يُمنع؛ لأن "الجبانة أحباس لا يستحق فيها أحد شيئًا" (٤١٤)، إلا أنه يُمنع إن كان لديه مكان للدفن؛ لأن للناس أغراضًا في صيانة موتاهم، وتعاهدهم بالترحم، فقدسأل سحنون (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) بعض أهل العلم عمن حفر قبرًا في الجبانة فدفن غيره فيه؛ فأفتى بأن يحفر للأول قبرًا مثله في ذلك الموضع، وأجاب أبو بكر بن اللباد (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) على المسألة نفسها: بأن عليه قيمة حفر ذلك القبر، وأفتى ابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) بألا يُخرج الميت ويُلزم المتعدي حفر قبر مثله، أو قيمة حفره (٤١٥)، أما الفقيه أبو الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) فأفتى بأن عليه قيمة حفر الأول، أوأقل، في حين أفتى اللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، بأن عليه أكثر من قيمة حفر القبر الأول، أو ما يُستأجر به الثاني؛ لأنه بتعديه أدخله في الأجرة الثانية، وإن كان الحفر الأول في موضع مملوك ـ أي مقبرة خاصة ـ أخرج منه الميت وقت دفنه في الحال (٤١٦)، إن لم يكن قد أُذن له (٤١٧).

وهكذا ترد كثير من نوازل الفترة حول هذه المسألة، ومنها نشوب خلافات بين شخص قام بحفر لحد لدفن أحد أقاربه وقام شخص آخر بالتعدي على هذه الحفرة ودفن ميت له فيها (٤١٨)، وعن شريف دفن بمقبرة

---

(٤١٤) اللخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٧١٢.

(٤١٥) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٤.

(٤١٦) اللخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٧١٢.

(٤١٧) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٤.

(٤١٨) اللخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٧١٢.

الزلاج بتونس، ثم أقر أحد قرابته ـ كان غائبًا وقت الدفن ـ بأن المقبرة التي دُفن بها ليست لهم بل لجيرانهم، فجاءت الفتوى بأن يُعطِي ورثته قيمة القبر للجيران، وأضاف اللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) إن لم تكن فترة الدفن قد طالت فعليهم إخراجه، وإن طالت بقي، لاحتمال تغيره، وزاد ابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) أن لأصحاب القبر الأُوَل الانتفاع بظاهر أرضه حال تقادم الدفن، لاسيما إن كانت مقبرة خاصة (٤١٩).

وفي المقابل، حدث في بعض الأحيان أن يتعدى الناس بالدفن في أرض غير مخصصة لذلك، وهو ما تثبته نازلة عن أصحاب فناء كانوا يستغلونه في إلقاء فضلاتهم ونفاياتهم، فغابوا عنه؛ فاستغله الناس في الدفن فترة غيابهم، ثم عاد أصحاب الفناء وأرادوا تسويته ليرموا فيه كسابق عهدهم، فجاءت فتوى ابن عبدوس (ت٢٦٠هـ/٨٧٤م) أن لهم ذلك حال تقادم دفن الناس في هذا الموضع، أما إن كانت القبور جديدة فلا يستحب، وأفتى ابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) بأن لهم الانتفاع بظاهر أرض الفناء، وتشدد ابن رشد (٥٢٠هـ/١١٢٦م) بأن أعطاهم حق نبش تلك القبور وتحويل رفات الموتى إلى مقابر المسلمين اقتداءً بفعل معاوية بن أبي سفيان لما أراد حفر أحد العيون (٤٢٠).

أثيرت كذلك مسألة التعدي على المقابر من قبيل **اتخاذها طريقًا**، وهو ما لم يجزه بعض الفقهاء، في حين رخص أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠/١٠٣٩م) في ذلك إن " كان التطرق بالمشي يشبه المجاز فقط "(٤٢١).

---

(٤١٩) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٧، ج١، ص٥٠٤.

(٤٢٠) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٤. انظر مزيد من النوازل في هذا الصدد، البرزلي، مصدر سابق ج٥، ص٣٨٤-٣٨٥؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص ص٤٥٦-٤٥٧، ٤٥٨.

(٤٢١) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٤٠٠.

أما فقهاء الأباضية فقد وضعوا لذلك شرطًا، وهو إن سبق الطريق المقبرة فلا بأس بشقها، وإن سبقته؛ فلا يجوز سلوكها [٤٢٢]؛ لذا فقد أدب أبو مسور يصليتن النفوسي (ط٥، ٢٠٠-٢٥٠ه) رجلًا بالضرب لأنه كان يمشي في مقبرة حارة أوغليت، "لأن ذلك حق الأموات" [٤٢٣].

وفي السياق ذاته، تأتي **مشكلة المباني والدور المطلة أو الملاصقة للمقابر**، وما أثارته من خلافات، وقد أكدت الفتوى بوجه عام منع فتح أبواب الدور وإحداثها على المقابر؛ حتى لا تصير المقابر طرقًا [٤٢٤]، فقد الفقيه أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ/١٠٣٩م) عن أرض محبسة للدفن أراد رجل فتح باب داره إليها؛ فقام عليه ورثة محبسها لأن ذلك يضر بمقبرتهم، فجاءت الفتوى بعدم جواز ذلك، انطلاقًا من أن سكن تلك الدار المحدثة، وما يترتب عليه من مرور الماشية، أو إلقاء الأزبال فيها، أو ارتفاق أهل الدار بما يليهم من أرض المقبرة سيؤذي المقبرة بدرسها أو تقذيرها؛ لذا يغلق الباب المحدث إلى المقبرة رعاية لحرمة عظام موتى المسلمين [٤٢٥]، وهو نفسه ما أفتى به أبو بكر الخولاني (ت٤٣٢هـ/١٠٤١م) [٤٢٦]. والحقيقة أنه في حالات أخرى حُرمتْ المقابر ممن يقوم بالذود عنها ويحفظها من التعدي، ومن ثم كان لا يقع التغيير على المتعدي، نموذج ذلك ما حدث في دار مدفن الفقيه محمد بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) بالقيروان، حيث اشترى رجل جزءا من بيت وفتحه في بيت مدفن الشيخ ودفن فيها هو وقرابته، ولم يُلزَم بتغيير ما أَحدث إما لعدم القائم، أو لأن تلك البقعة قد انقطعت من ملك

(٤٢٢) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٤٧؛ الشماخي، مصدر سابق، ٣٨٣.

(٤٢٣) البغطوري، مصدر سابق، ص١٢٣؛ الشماخي، مصدر سابق، ١٥٦.

(٤٢٤) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٤٠٧.

(٤٢٥) أبو عمران الفاسي، مصدر سابق، ص١٢٨؛ البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٩٩-٤٠٠.

(٤٢٦) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٢٣٥.

الغير وصارت من جملة دار الشيخ [٤٢٧]، حتى وإن كان فهذا المسلك الأخير يحتاج إلى موافقة ورثة المقبرة لاسيما وأنها مقبرة خاصة.

وفي السياق ذاته سئل أبو الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) عن رجل "يحجر في مقبرة للمسلمين بالبناء" على موضع ليدفن فيه من يموت له، ثم أراد بعد ذلك هدم ما بني وبيع أنقاضه من حجر ورخام؛ فأفتى بأن مقبرة المسلمين صارت عدة للموتى ولا ينتفع بها إلا للدفن، وليس لأحد أن يبني فيها شيئا حتى يحتاج إليه بعد ذلك [٤٢٨]. ورغم ذلك يبدو أن مثل تلك الفتاوى لم تكن لتقيد رغباتأرباب الجاه والسلطان فلم يلتزموا بها، وهو ما حدث في مقبرة الزلاج بتونس، حيث عمد ذرية بعض الأمراء إلى بيع الرخام وغيره من الأنقاض المرتفعة الأثمان ولم ينكر عليهم أحد [٤٢٩]، وهو ما يعد شكلًا من أشكال التعدي.

ثبت كذلك من خلال نوازل الفترة عدة اعتداءات على المقابر من خلال **حرث جزء من أرضها** وزراعته واستغلاله من قبل بعض الأفراد، فتتواتر التفاصيل عمن غصب أرضًا من فدان محبس على الدفن [٤٣٠]، وعمن غرس شجرًا في مقبرة قديمة [٤٣١]، كما سئل سحنون عن رجل تعدى على مقبرة؛ فحرثها ومنع الدفن فيها، وقامت بذلك بينة أنها معروفة كمقبرة للمسلمين حتى استغلها ذلك الرجل [٤٣٢]، وبالمثل سئل القابسي عن مقبرة قديمة اندرست قبورها، فوثب عليها رجل له حائط، فأدخل بعضها في

(٤٢٧) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٤٠٠.
(٤٢٨) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٩-٣٤٠.
(٤٢٩) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٨.
(٤٣٠) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٨٦.
(٤٣١) محمد بن سحنون، مصدر سابق، ص٣٢٠.
(٤٣٢) ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج٨، ص٢٤٢، ج٩، ص٢٨.

حائطه وزرعها وغرس فيها أشجارًا [٤٣٣]. والحقيقة أن فتاوى العلماء والفقهاء اختلفت تبعًا لحال المقبرة، فقد ذهب البعض أنه لا يجوز مطلقا حرثها سواء عفت قبورها أو لا [٤٣٤]، وهو ما أفتى به ابن محسود الهواري (٤٠١هـ/١٠١١م) مشددًا على عدم الانتفاع مطلقًا سواء بالبيع أو بالحرث أو بالغرس [٤٣٥]، لأنها من الأحباس ولا يجوز تبديلها وتغييرها عما وضعت له[٤٣٦]، كما أجاب القابسي على النازلة نفسها بأن يُقلَع الغرس وتُرَد البقعة على ما كانت لجماعة المسلمين، أما ما انتفع به المتعدي فيما مضى فعليه الكراء، ويتم التصدق به، أما ابن أبي زيد فأضاف إلى نزع المتعدي عن الموضع، إسقاط شهادته [٤٣٧]، إلا أنه جريًا على عادة الناس في حرث المقابر التي ضاقت عن الدفن بعد عشر سنين، فقد جاءت فتوى اللخمي ـ رغم كراهة ذلك ـ بأن يوضع كراء تلك الأرض في مؤنة أكفان الفقراء والمساكين وحفر قبورهم [٤٣٨]. في حين أفتى آخرون بأن تلك الأشجار المغروسة تصير حبسًا ولا يأكل منها إلا أهل المسكنة [٤٣٩]، أما ما ينبت من الشجر طبيعيًا في أرض المقبرة فـ "هي لله يؤكل ثمرها" حسب فتوى سحنون [٤٤٠].

ويبدو أن تردي أوضاع أصحاب بعض الحرف كان سببًا في تعديهم على تراب المقابر؛ لذا عمدوا إلى استغلاله في بعض الصناعات كصناعة

---

(٤٣٣) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٩.

(٤٣٤) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٤.

(٤٣٥) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص١٧٤.

(٤٣٦) البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٤.

(٤٣٧) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص١٧٤.

(٤٣٨) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٤.

(٤٣٩) محمد بن سحنون، مصدر سابق، ص٣٢١.

(٤٤٠) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٤٣٦.

الفخار أو البلاط؛ وهو ما لم يجزه الفقهاء مطلقًا استنادًا إلى أن تراب المقابر حبس، مشددين على أنه من باع شيئًا من الفخار المصنوع من تراب المقابر فإنه يجب فسخه، ورد الثمن إلى المشتري إن كان معلومًا، أما في حال كان مجهولًا فإنه يُصرف في حفر قبور الضعفاء وشراء ما يلزم لتجهيزهم (٤٤١).

أما أبشع صور التعدي فهي **نبش القبور**، الذي نهت عنه الشريعة الإسلامية مراعاة لحرمة الجسد، إلا أن ثمة أسباب دفعت الفقهاء إلى تجويز ذلك في بعض الحالات، شريطة عدم تغير الميت، أي أن يكون ذلك بقرب عهد بالدفن، ومن ذلك رغبة ذوي المتوفى في نقله إلى قبر آخر (٤٤٢)، كما أجاز سحنون للرجل الذي ماتت زوجته النصرانية وولده منها، ودفنا في غيابه بمقابر النصارى أن ينبش قبر ولده وينقله إلى مقبرة المسلمين (٤٤٣)، كما أجاز المالكية نبش قبر المسلم الذي دُفن دون غسل أو كفن فإنه "ينبش مالم يتغير فيغسل ويكفن ويحنط ويصلى عليه ويقبر إلى القبلة" (٤٤٤)، رغم كراهة ذلك عند بعض الفقهاء كاللخمي (٤٤٥)، والحق أن تلك الحال نادرة الحدوث، إلا أنها غيرمستبعدة لاسيما في أوقات الملمات كالحروب والأوبئة. (٤٤٦)أما نبش القبور أو هدمها للصالح العام أو بغرض الانتقام والتشفي، فسيعالج في مبحث علاقة السلطة بالمقابر.

يتضح من خلال بعض نوازل الفترة أيضا أن الفقهاء أجازوا نبش القبر لاستخراج بعض المفقودات، فقد عرضت نازلة على محمد بن سحنون

---

(٤٤١) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ص١٧٦، ٥٠٨، ٥١٧؛ الونشريسي، مصدر سابق ج١، ص٣٣٦.

(٤٤٢) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٥١٠.

(٤٤٣) ابن أبي زيد، مصدر سابق، ج١، ص٦٣٢.

(٤٤٤) ابن أبي زيد، مصدر سابق، ج١، ص٦٣٠-٦٣١.

(٤٤٥) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٥١٠.

(٤٤٦) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٩.

(٢٥٦هـ/٨٧٠م) تخص رجلا خاف في طريقه من اللصوص فابتلع ما معه من دنانير فمات، فأفتى بأن ينبش ويشق جوفه لاستخراج المال إن ثبت أن ذلك المال في جوفه [٤٤٧]. كما أفتى اللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) لمن سقط خاتمه أو دنانيره أن يستخرجها من القبر ما لم يتغير الميت، [٤٤٨] وبالمثل أفتى فقهاء الأباضية بنبش قبر أحد الأشخاص لاستخراج أداة الحفر المعروفة عندهم بالمسحة، قد نُسيت داخل القبر أثناء دفنهم لمتوفى [٤٤٩].

لم يتورع اللصوص كذلك عن الإقدام على نبش القبور بغرض سلب أكفان الموتى؛ وهو ما يشي بحالة التردي الاقتصادي-الاجتماعي وما صاحبه من تردي أخلاقي، وتتوفر بشأنه قرينة تعود للوسط الأباضي حيث وجد جماعة من أهل وارجلانقبرًا منبوشًا وميتًا مسلوبًا؛ فكفنوه ودفنوه ولم يتمكنوا من معرفة الفاعل [٤٥٠]. ولعل في مناقشة كتب الفقه المالكي لمسألة "إذا سرق كفنه بعد الموت" والفتوى بضرورة تجديد الكفن للميت [٤٥١]، ما يشي بوجود تلك الظاهرة في المجتمع. وحرصًا من المؤسسة الفقهية على التصدي لها فقد تشدد الفقهاء في الحكم على السارق، وأفتوا بقطع يده حتى وإن كانت قيمة الكفن ربع دينار [٤٥٢]، كما أفتوا بقطع يد من سرق من القبر شيئًا استنادًا إلى أن "القبر حرز لما فيه كالبيت" [٤٥٣].

---

(٤٤٧) الأجوبة، ص١٦٧.

(٤٤٨) التبصرة، ج٢، ص٧١٨.

(٤٤٩) البغطوري، مصدر سابق، ص١٠٦.

(٤٥٠) الوسياني، مصدر سابق، ص٦١١؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٥١٣.

(٤٥١) اللخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٠١.

(٤٥٢) ابن الجَلَّاب المالكي، **التفريع في فقه الإمام مالك بن أنس**، تحقيق، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ج٢، ص٢٢٢.

(٤٥٣) ابن عرفة التونسي، **المختصر الفقهي لابن عرفة**، تحقيق، حافظ عبد الرحمن محمد خير، مؤسسة خلف أحمد الخبتور للأعمال الخيرية، دبي٢٠١٤، ج١٠، ص٢٥٢.

سابعًا: القبر والحياة الاجتماعية.

شكل القبر مفصلًا مهمًا من مفاصل الحياة الاجتماعية، التي هي نتاج لأوضاع سياسية واقتصادية وبُنى اجتماعية وعقائدية وذهنية؛ ومن ثم كان له حضور ملحوظ في حياة أفراد مجتمع إفريقية، وقد تجلى ذلك عادة منذ لحظة الوفاة، حيث تنشأ الحاجة إلى من يغسل الميت ويحنطه ويكفنه، ومن يحفر قبره ومن يبنيه ومن ينقش شاهده، فضلًا عن الحاجة الماسة سواء لقارئ للقرآن أو نائحة، وغيرهم من أصحاب الحرف التي ارتبطت بالموت بوجه عام والقبر على نحو خاص، وهو ما يعني أن حزن وبؤس البعض يكون سببا في سعادة البعض الآخر، عبر **خلق وظائف عدة تدر الرزق والخير** وتوفر سبل المعاش لفئات متنوعة من المجتمع [٤٥٤]، فالمقبرة ساحة عمومية تمارس فيها أنواع مختلفة من الأنشطة اليومية [٤٥٥].

فتفيد بعض الإشارات باشتغال بعض أفراد المجتمع **بالغسل والتكفين**، لقاء أجر معين يُتفق عليه، يُدفع من قبل أهل المتوفى أو من ميراثه[٤٥٦]، ولا ريب فإن العمل بتلك المهنة يتطلب إلماما بخطوات الغسل[٤٥٧]، فضلا عن سمات شخصية أخرى يأتي في مقدمتها الصلاح والورع [٤٥٨]، قطعًا مع بعض الاستثناءات، التي أوضحت خلو البعض من تلك السمات، وهو ما يؤكد عليه تصرف مشين لإحدى الغاسلات، كانت

---

(٤٥٤) عن المهن المرتبطة بالموت، انظر: محمد حقي، **"عن الموت، تجهيز الموتى ومهن الموت"**، مجلة عصور الجديدة، المجلد ٨، العدد ٢، ديسمبر ٢٠١٨م، ص٤٧-٦٨.

(٤٥٥) محمد مزين، مرجع سابق، ص١١٤

(٤٥٦) ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص ص٢٤٥، ٢٤٧.

(٤٥٧) ابن يونس الصقلي، **الجامع لمسائل المدونة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣، ج٣، ص١٠٠٩-١٠١٧؛ ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤٥.

(٤٥٨) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٦.

تُغسل يومًا إحدى المشهورات بالزنا، وعيرتها بأنها طالما عصيت الله بذلك الجسد؛ مما دفع ابن أبي زيد القيرواني لإقامة حد القذف على الغاسلة [٤٥٩]، وهو ما يكشف عن حجم الجرم تارة، وجهل الغاسلة بأمور الدين وأصول مهنتها تارة أخرى.

حفظت لنا المصادر أسماء بعض الغاسلين في إفريقية، منهم: أبي جعفر أحمد ابن منصور، مولى بني تميم المعروف بابن مقرعة الغاسل (ت٣٠٨هـ/٩٢٠م) [٤٦٠]، ورجل صالح يعرف بالصفار (ق٤هـ/ وأبي الحسن علي بن الساحلي (ت٣٩٧هـ/١٠٠٧م) [٤٦٢]، يتضح كذلك أن الرقيق اشتغلوا بغسل الموتى [٤٦٣]، ودفنهم إذ ترد إشارة عن رجل مات فـ "دُفع إلى عبيد فدفنوه" [٤٦٤]، إلا أنه لم يتضح هل تم ذلك نظير أجر أم أن أولئك العبيد هم خدم المتوفى. وكان هناك أشخاص متخصصون في صناعة الأكفان وبيعها، ويسمى صاحب تلك المهنة "كفان" [٤٦٥] أو "أكفاني" [٤٦٦]، وقد شغلت مسألة الكفن أذهان الفقهاء فناقشوا مسائل تتعلق بتحسين الكفن وعدده ولونه وصفته [٤٦٧].

---

(٤٥٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١١٠-١١١.

(٤٦٠) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٩-١٣٠.

(٤٦١) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٦٦.

(٤٦٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٣١.

(٤٦٣) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ١٢٩؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص ٤٨.

(٤٦٤) ابن عذارى، مصدر سابق، ج١، ص ٣٩١.

(٤٦٥) محمد حقي، مرجع سابق، ص٥٣.

(٤٦٦) المازري، مصدر سابق، ج١، ص١٥؛ ابن الخطيب، **مثلا الطريقة في ذم الوثيقة**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص٢١؛ العقباني، مصدر سابق، ص١١٤.

(٤٦٧) ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج١، ص٥٥٥- ٥٥٦؛ اللخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٠١-٧٠٦؛ المازري، مصدر سابق، ص١١٣٣-١١٤٢.

ومثلما وُجد غاسلين للرجال، اقتضت الحاجة وجود غاسلات لغسل النساء [٤٦٨]، وقد شدد الفقهاء على من توفيت زوجته ولم يجد من يغسلها بأجر ولا بدون، عليه أن يغسلها هو ويستر عورتها. [٤٦٩]

وفي حالات أخرى كان المتوفى يوصي لأحد من العلماء أو الزهاد بغسله وجهازه، فقد أوصى الفقيه المالكي يوسف بن نصر (ت٣٢٦هـ/ ٩٣٧م) ألا يشرف على غسله ودفنه إلا خادم له اشتهر بعلمه وتقواه [٤٧٠]، وأوصى الشيخ عيسى أبي الحجاج أثناء مرضه، ماكسن بن الخير (ت٤٩١هـ/ ١٠٩٨م) ألا يبرح ورجلان حتى يموت ويغسله ويكفنه ويصلي عليه ويدفنه[٤٧١]. وهو ما يعكس طبيعة العلاقة بين الحي والميت، الذي ربما أراد نيل البركة أو الستر وعدم الكشفة على غرباء عنه.

كان من المتعارف عليه أن يتولى أصدقاء المتوفى أو تلامذته غسله وتكفينه، فقد غَسَّل أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني (ت٤٣٢هـ/١٠٤١م) أستاذه القابسي [٤٧٢]، كما كان أهل الميت في بعض الأحيان يعهدون لأحد من أهل العلم والصلاح بغسل ذويهم، فقد طلب الشيخ الأباضي أبو خزر يعلي بن زلتاف (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) من أحد العزابة غسل ابنته. [٤٧٣] أما الموتى الغرباء ومن لا أقارب لهم فقد تطوع كثير من الصلحاء والفقهاء بغسلهم وتكفينهم بأيديهم تواضعًا لله، ورغبة منه في الأجر، وهو ما كان مسلك الفقيه المالكي عبد الله بن فروخ (ت١٧٥هـ/٧٩١م) [٤٧٤]. كما تطوع بعض

(٤٦٨) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١١٠-١١١.
(٤٦٩) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٤.
(٤٧٠) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١٦.
(٤٧١) الوسياني، مصدر سابق، ج١، ص٣٨٢.
(٤٧٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٧٦.
(٤٧٣) الوسياني، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٩.
(٤٧٤) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص١٨٥.

السادة من الصلحاء بغسل خدمهم [٤٧٥].

لا يفوتنا في هذا المضمار الإشارة إلى أن الخلافات المذهبية قد ألقت بظلالها أيضًا على غسل الموتى، فقد رفض الناس أن يُغسل ابن مقرعة الغاسل صدقة المتعبد (ت٣٠٤هـ/٩١٧م) لأنه غسل قبله مباشرة القاضي الأغلبي المعتزلي الصديني (ت٣٠٤هـ/٩١٧م)وقالوا له: "اذهب لا تنجسه" [٤٧٦].

يتضمن تجهيز الميت تحنيطه، أي **تطييبه بحنوط** خاص بالموتى [٤٧٧]، وهو خليط من المسك [٤٧٨]، والكافور [٤٧٩]وأنواع الطيب [٤٨٠]، وهو ما يعني ضمنًا وجود من يتحرفون بصنع الحنوط، ودق المسك وتجهيزه [٤٨١]. كما لا يفوتنا التنويه أن بعض الزهاد كانوا يتبرعون بأنواع الطيب، ويسلمونها لغاسلي الموتى كي يستخدموها في تعطير أجسام الموتى وأكفانهم، وهو ما كان مسلك الزاهد أبا سعيد النوفلي (ت٣٥٤هـ/٩٦٥م) [٤٨٢].

ارتبطت كذلك **مهنة الحمالة** بالموت والقبر، حيث يقوم الحمالون بحمل النعش إلى المقبرة لقاء أجر معين يدفع من قبل ذوي المتوفى، أو من ميراثه[٤٨٣]، أو من الأحباس المحبسة على المقابر [٤٨٤]، إلا أنه بمعاينة

---

(٤٧٥) الشماخي، السير، ج١، ص١٦٨.

(٤٧٦) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٩-١٣٠.

(٤٧٧) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٢.

(٤٧٨) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٠٠؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٠٦.

(٤٧٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٦؛ المازري، مصدر سابق، ص١١٣٣.

(٤٨٠) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٢؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٥٦.

(٤٨١) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ١٣، ص١٩٣.

(٤٨٢) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٦.

(٤٨٣) ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤٧.

(٤٨٤) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص١٥٠.

نصوص الفترة تبين أن حملة النعش غالبًا هم من ذوي الميت وأصدقائه وأتباعه من العامة والخاصة، لاسيما إن كان شخصية لها حضور اجتماعي أو علمي أو كرامي، فعلى سبيل المثال ـ لا الحصر ـ حضر جمع غفير من أهل القيروان جنازة الفقيه المالكي أبي عمران الفاسي "وتجاذبت العامة نعشه وهو على رؤوسهم إلى أن كسروا تحته نعشين" (٤٨٥)، وهو ما ينطبق على عبد الرحمن بن عبد الله الخولاني (ت٤٣٢هـ/١٠٤١م) الذي "كسرت تحته نعوش كثيرة" (٤٨٦). لذا فربما كان الحملة المستأجرين يحملون الموتى من الغرباء أو ممن ليس له أهل.

تطلب حفر القبر وجود مهنة **الحفاريين،** الذين كانوا يقومون بعملية حفر القبر مقابل أجرة معلومة (٤٨٧)، وكان على الحفار حفر طول القبر حسب طول الميت، على أن يترك له تقدير عمق القبر واتساعه، وإن شدد المحتسب على ضرورة تعميق القبر لتفادي تسرب الروائح وحفظ الجثة من الحيوانات المفترسة (٤٨٨)، وبعد الدفن تتم عملية التسوية على الميت بالطوب إلا أنه في بعض الأحيان تطوع بعض القرابة والأصدقاء وأهل الخير بحفر قبور ذويهم (٤٩٠)، رغبة في الأجر والثواب من الله، أو ربما لضيق ذات اليد.

ترتبط بحفر القبر حرف أخرى، **كحرفة البناء والنقش والنجارة،** فبناء القبور (٤٩١)ونقشها (٤٩٢)من الحرف التي درت دخلا على أصحابها، وقد

(٤٨٥) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٣.
(٤٨٦) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٩.
(٤٨٧) سحنون، **المدونة الكبرى**، دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م، ج٣، ص٤٥٩.
(٤٨٨) السقطي، مصدر سابق، ص٦٨؛ محمد حقي، مرجع سابق، ص٦١.
(٤٨٩) ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج١، ص٦٤٧؛ ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٦٢.
(٤٩٠) أبو الطاهر الفارسي، **مناقب محرز بن خلف**، ص١٣٠.
(٤٩١) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص ٣٠٩.
(٤٩٢) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٦٢.

سبقت الإشارة إلى تأنق طبقة العلية في بناء ونقش قبورها وهو ما يعني ضمنا رواج تلك الحرف في المجتمع، وقد أمدتنا شواهد قبور إفريقية لاسيما شواهد القيروان بأسماء عدد من النقاشين الذين ربما توارث بعضهم تلك المهنة أبا عن جد، ومنهم: عتيق بن حسن، وأبي القاسم بن حسن، وخلوف بن أبي الخير، وأبي بكر بن أبي الخير، وحسن القيسي، وحسن المهدوي النقاش (٤٩٣)، ومن ثم برز عدد من ورش صناعة تلك الشواهد كورشة خلوف بن أبي الخير وورشة أبي القاسم عتيق بن حسن، ناهيك عن الورشات غير الموقعة (٤٩٤). وعلى الجملة فقد تميزت شواهد إفريقية بالجمال والإتقان والابتكار، وهو ما شهدت به المصادر الكتابية عن شواهد كتبت بخط حسن لا يوجد "بجبابين القيروان مثله" (٤٩٥)وأخرى كتبت "بخط معتبر" (٤٩٦)، كما دعمته وأثبتته الشواهد الأثرية بما لا يدع مجالا للشك في مهارة وبراعة نقاشي إفريقية (٤٩٧).

أما عن **النجارين** فقد برز عملهم في صناعة النعوش (٤٩٨)، وتوابيت الدفن، التي تأنق صانعوها في زخرفتها وتجميلها، والتي اتُخذت غالبًا من قِبل أرباب الأسر الحاكمة (٤٩٩)وربما من أفراد طبقة الخاصة.

اتخذ البعض أيضا من **قراءة القرآن على المقابر** حرفة تدر عليه دخلًا يتعيش منه، ليقرأ في كل يوم وليلة جزءا من القرآن (٥٠٠)، لاسيما وقد أقبل

---

(٤٩٣) خالد مودود، مرجع سابق، ص٤٣.

(٤٩٤) لطفي عبد الجواد، **صناعة النقائش الجنائزية بالقيروان**، ص٣١-٣٢.

(٤٩٥) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ص ٨١.

(٤٩٦) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٧٤.

(٤٩٧) لمزيد من التفاصيل عن براعة نقاشي القبور، انظر، خالد مودود، مرجع سابق، ص٣٩-٤٤.

(٤٩٨) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص١٥٠.

(٤٩٩) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٣٩٠؛ ابن خلدون، مصدر سابق، ج٦، ص٢١٠.

(٥٠٠) الونشريسي، مصدر سابق، ج٨، ص٢٦٠.

الناس على استئجارهم منذ لحظة الوفاة للقراءة عند الدفن [٥٠١]، أو في صبيحة الموت وحتى السابع، فضلًا عن المواسم [٥٠٢]، وقد اشتغل بتلك المهنة القراء غالبًا، وربما شاركهم طلاب العلم [٥٠٣]على أن يقرأ الرجال للرجال والنساء للنساء، إلا أنه قد جرى استئجار العميان للقراءة على النساء في بعض الأحيان[٥٠٤]، وقد تباينت آراء العلماء تجاه تلك الظاهرة حيث مال فريق منهم للإباحة، في حين أدرجها آخرون ضمن المكروه، إلا أن تلك العادة لم تبلغ حد التحريم [٥٠٥]، وهو ما يفسر بقاءها دون انقطاع [٥٠٦] ربما إلى الآن.

جرى في مجتمع إفريقية كذلك **استئجار النائحات** [٥٠٧]، للاجتماع مع النساء من قرابة المتوفى للبكاء والنواح ولطم الخدود وقت الموت أو بعده[٥٠٨]، سواء بالمنزل أو عند القبر [٥٠٩]، في الوسط المالكي [٥١٠] أو الأباضي [٥١١]؛ بغية تفخيم المأتم وإظهار ضخامة المصيبة، وهو نوع من الدعاية لمكانة الميت وأسرته [٥١٢]؛ وهو ما تصدى له الفقهاء بشدة، معتبرين

---

(٥٠١) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٣.

(٥٠٢) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٥١٤-٥١٥؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص ص ٣١٣، ٣٢٣.

(٥٠٣) القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٠.

(٥٠٤) ابن عبدون، مصدر سابق، ص٢١٧؛ العقباني، مصدر سابق، ص٧٤؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٣.

(٥٠٥) ابن عبدون، مصدر سابق، ص٢١٧؛ العقباني، مصدر سابق، ص٧٤-٧٥؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٨، ج٨، ص٢٦٠

(٥٠٦) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٥٠٧) يحيي بن عمر، **كتاب أحكام السوق**، تحقيق، محمود على مكي، ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٦م، م٤، ع ١-٢، ص١٢٥؛ الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٨٨٨؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٠.

(٥٠٨) البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٤٣٥.

(٥٠٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٩.

(٥١٠) المصدر نفسه والجزء والصفحة.

(٥١١) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٨٨٨.

(٥١٢) محمد حقي، مرجع سابق، ص٥٨.

ما يحصلن عليه من مال يدخل في باب الحرام، ولكن دون جدوى بدليل استمرارهم على مدار الفترة المدروسة [٥١٣].

تشير الروايات أيضا لوجود مهنة **القَيِّم** على القبر، أو **الزَوَّار**، ولا ريب أن ذلك كان يختص بقبور أهل الصلاح والولاية من العباد والزهاد والفقهاء والعلماء، ومهمته كانت تعريف الناس من الزوار بتلك القبور وذكر فضائل أصحابها [٥١٤]، الذين تعهدهم الناس بالزيارة والتبرك و "الوعدات" ـ النذور ـ والتي كانت من الكثرة بحيث وفرت للقائم في الموضع العيش في رفاهية هو وأسرته [٥١٥]، ومن أشهر القبور التي كان لها قيِّم، قبر أبي لبابة صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقابس [٥١٦]، وقبر الفقيه أبي عمران الفاسي [٥١٧]، وقبر الشيخ أبي اسحاق السبائي بالقيروان [٥١٨].

ومما يجب التنويه عليه، أنه رغم أهمية تلك المهن المتعلقة بالقبور إلا أن أصحابها عانوا على مدار الفترة المدروسة ـ بل حتى اليوم ـ من تعاطي اجتماعي سلبي من قبل باقي أفراد المجتمع، حتى شاع التشاؤم والنفور منهم، وصارت تلك المهن من المهن الممقوتة من قبل أفراد المجتمع، وهو ما يتجلى فيما أورده ابن الخطيب، الذي نعت أصحاب تلك المهن بأنهم "من أنذال الناس وأوغادهم وذوي المهن الغثة. . . وأصحاب المكاسب الخبيثة"،

---

(٥١٣) يحيي بن عمر، مصدر سابق، ص١٢٥؛ الداودي، **كتاب الأموال**، تحقيق، محمد سالم شحادة، مطبعة دار الثقافة، الرباط، د. ت، ص١٦٤؛ الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٨٨٨؛ المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٩؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٠.

(٥١٤) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٦٦.

(٥١٥) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٢، ج٣، ص١٦٤.

(٥١٦) المصدر نفسه، ج١، ص١٢.

(٥١٧) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٤.

(٥١٨) المصدر نفسه، ج٣، ص٦٦.

مستشهدًا بمقولة: "لا تدخل ولدك جزارا ولا حناطا ولا بائع كفن"، ثم راح يفسر ذلك بقوله: "قيل في الجزار للازم القساوة، وفي الحناط أو بائع الحنوط والكفن لما يلزم ذلك من حب غلاء السعار على تأويل أو حب كثرة الموت الواقع في الناس" (٥١٩). وفي السياق ذاته اعُتبرت مهنة النائحة من المهن الخسيسة؛ ومن ثم تُرد شهادة من تعمل بها (٥٢٠)، كما كانت سمعة حافر القبر سيئة في المجتمع، وهو ما يتضح من خلال بعض الأمثال الشعبية التي ترددت على ألسنة الناس كقولهم لسيء النية: "نية حفار القبور" (٥٢١).

مثلما ارتبطت المقابر بالجانب الاقتصادي من حياة أفراد مجتمع إفريقية عبر خلق فرص للعمل، فقد ارتبطت كذلك **بالعلاقات والعادات والسلوكيات**، فقد كان من الوارد أن تنشب بعض **النزاعات العائلية** حول تحديد موضع الدفن، وهو ما تفصح عنه نازلة عن امرأة توفيت فأراد زوجها دفنها في مقبرته، وأراد أهلها دفنها في مقبرتهم، وجاءت الفتوى لصالح أهلها طبقا لنص المدونة (٥٢٢).

دأب البعض كذلك على **الحضور والانتظار بالمقبرة** حتى تأتي الجنازة ليصلي عليها بمصلى المقبرة، وليحضر دفنها، كالقاضي عيسى بن مسكين (ت٢٩٥هـ/٩٠٨م) الذي انتظر جنازة إحدى نساء إبراهيم بن الأغلب، فقُدِّم للصلاة عليها (٥٢٣)، ومثله عبد الوهاب بن نصر المتعبد

(٥١٩) ابن الخطيب، مصدر سابق، ص٢١. ثم تابع ابن الحاج، مصدر سابق، ج٤، ص٢٠٢؛ محمد حقي، مرجع سابق، ص

(٥٢٠) البرزلي، مصدر سابق، ج٤، ص٢١٠.

(٥٢١) الزجالي، **أمثال العوام في الأندلس**، القسم الثاني، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب، د. ت، تحقيق، محمد بن شريفة؛ محمد حقي، مرجع سابق، ص٦٠.

(٥٢٢) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص ٣١٩.

(٥٢٣) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص ٤٩٧.

(ت٣٣٠هـ/٩٤٢م)، الذي كان ينتظر الجنازات بمقبرة باب سلم ويصلي ما اعتاد عليه في خلوته من الركعات [٥٢٤]. وبوجه عام كان **الاحتشاد** على حضور الجنائز بالمقابر سمة بارزة لمجتمع إفريقية، لاسيما جنائز العلماء والصلحاء والعُبَّاد حتى كان الناس يزدحمون بأعداد مهولة لدرجة لا تمكنهم من عبور بعض أبواب المدن للخروج للمقبرة، وهو ما حدث بجنازة يحيي بن زكريا التجيبي (ق٢هـ/٨م) بباب نافع بالقيروان؛ [٥٢٥]ويرجع ذلك في كثير من الأحيان لحث الفقهاء والعلماء الناس على حضورها بغية تحصيل الأجر؛ [٥٢٦] لذا جرت عادة من لم يتيسر له حضور الدفن أن يحفن ثلاث حفنات بيده من قبر الميت ليكون له أجر المواراة، [٥٢٧]هذا فضلا عن كون ذلك إحدى العادات المتجذرة في بعض الأوساط كالوسط الأباضي، فقد اعتاد أهل ورجلان مثلا، إن مات أحد من فضلائهم في أي قرية من قراهم؛ بعثوا إلى أهل القرى المجاورة ليحضروا جنازته؛ لذا كانوا لا يعجلون بدفن موتاهم حتى يشهد جنازتهم جماعتهم [٥٢٨].

حرص البعض كذلك على ارتداء **الملابس القاتمة** عند حضور الجنائز، كتعبير عن الحزن أو تقديرا لمشاعر ذوي المتوفى، وهو ما تفيده إشارة عن القاضي سحنون بن سعيد، الذي كان من عادته عند حضور الجنائز لبس الأزرق والقلنسوة الزرقاء [٥٢٩].

لا يفوتنا في هذا المضمار الإشارة إلى أن تلك الجنائز ـ سواء صُلِّي عليها

---

(٥٢٤) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ٢٦٩.

(٥٢٥) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٤٠.

(٥٢٦) اللبيدي، مصدر سابق، ص١٧.

(٥٢٧) االلخمي، مصدر سابق، ج٢، ص٦٥٨.

(٥٢٨) الوسياني، مصدر سابق، ص٨٩٨؛ الدرجيني، مصدر سابق، ج ٢، ص٤٤٠-٤٤١.

(٥٢٩) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٣٤٤.

بالمقابر أو لا ـ كانت مناسبة **لظهور الخلافات المذهبية** وما ينجم عنها من صراعات سياسية صيغت في قالب اجتماعي ديني، وهو ما تجسده عدة روايات تشير إلى امتناع المالكية من الصلاة على المعتزلة، وهو ما ينطبق على مسلك كل من ابن فروخ (ت١٧٥هـ/٧٩١م) والبهلول بن راشد (ت١٨٣هـ/٧٩٩م) وعبد الله بن غانم (ت١٩٠هـ/ ٨٠٦م)الذين رفضوا الصلاة على ابن صخرة المعتزلي [٥٣٠]، وبالمثل رفض سحنون بن سعيد الصلاة على جنازة خلف القاضي المعتزلي ابن أبي الجواد (ق٣هـ/٩م)؛ لأنه كان يرى رأي الكوفيين ويقول بخلق القرآن؛ ولما بلغ الأمير ذلك أمر بضرب سحنون خمسمائة سوط وحلق رأسه ولحيته [٥٣١]، كما كان قيام القاضي الحنفي أبي العباس بن عبدون (ت٢٩٧هـ/٩١٠م) بضرب عدد من المالكية والتشهير بهم في سماط القيروان سببًا في رفض جبلة بن حمود الصدفي (ت٢٩٩هـ/ ٩١٢م) الصلاة على جنازة يصلي عليها القاضي [٥٣٢]، وهو ما ينطبق على أبي بكر بن اللباد (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) الذي كانت محنته بسبب رفضه الصلاة على جنازة يصلي عليها قاضي الشيعة ابن أبي المنهال [٥٣٣]، كذلك اشتهر أبو إسحاق الجبنياني (ت٣٦٩ه /٩٧٩م) بعدم حضور صلاة الجنائز على المخالفين مطلقًا [٥٣٤].

انعكست تلك الخلافات المذهبية كذلك على طريقة الدفن، فقد أهين المخالفون مذهبيًا في دفنهم ولم تحترم جثثهم بحال، فرغم السماح الفقهي بدفن المخالفين في مقابر المسلمين [٥٣٥] أي في المقابر العامة، إلا أن بعض

---

(٥٣٠) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٨.

(٥٣١) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٣.

(٥٣٢) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٣-٤٤.

(٥٣٣) القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣.

(٥٣٤) اللبيدي، مصدر سابق، ص٣٥.

(٥٣٥) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٣٨٥.

الفقهاء كاللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) استنكر مجرد وجود مقبرة لأهل السنة في مكان يعيش به جمع من الأباضية، بل وصل في فتواه إلى حد تشتيت الأباضية من الموضع [٥٣٦]. وهو ما كان ينطبق على أفراد المجتمع، فعلى الرغم من أن اتهام البهلول بن عمر بن صالح التجيبي بالقول بخلق القرآن، كان غير مؤكد، وأن البعض أنكر عنه ذلك، إلا أنه لما توفي وحملت جنازته، لم يتبعها إلا قليل من الناس "ورمي نعشه بالحجارة وقال الناس الوادي الوادي أي ألقوه في الوادي" [٥٣٧]. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعداه إلى قتل الأفراد بعضهم بعضا بسبب الخلاف المذهبي، فقد قتل جماعة من شباب مزاتة رجلا كان "يطعن في دين الوهبية" ورموه في زقاق بلا دفن، وذلك لأنهم غضبوا لغضب شيخهم أبي محمد جمال المدوني (ط٧، ٣٠٠-٣٥٠ه) الذي عرَّض به وأباح دمه [٥٣٨]. يمكن القول أيضًا أن الخلاف في المسائل داخل المذهب الواحد قد وضح في اتهام المخالفين بالنفاق بل بالشرك أحيانًا؛ مما ألقى بظلاله على إهانة دفن هؤلاء، وهو ما ينطبق على من عرفوا في الوسط الأباضي بـ "أصحاب السكاك" المعروف بأبد الله اللواتي، الذي خالف الأباضية والمسلمين بوجه عام؛ لذا كان جماعة الشيوخ بقسطيلية يصلون على جميع موتى المخالفين إلا أتباع السكاك، فمن مات منهم "جعلوا في رجليه مرابط وجروه بها إلى موضع يوارونه فيه" [٥٣٩].

---

(٥٣٦) فتاوى اللخمي، ص٤٧-٤٨.

(٥٣٧) أبو العرب تميم، **طبقات**، ص٩١.

(٥٣٨) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٧.

(٥٣٩) السكاك هو لقب لعبد الله اللواتي، أحد طلبة العلم الذي سكن قنطنار، وقد خالف هو وجمع من أصحابه جموع الأباضية وعامة المسلمين بوجه عام، فقد أبطلوا السنة والرأي، واعتبروا الأذان وصلاة الجماعة بدعة، والصلاة عندهم لا تجوز إلا بما يُعرف تفسيره ومعناه، وقد وصل الحال بمشايخ الأباضية إلى تكفيرهم؛ ومن ثم فهو يعبر هو وأصحابه عن الانشقاق الخامس في صفوف الأباضية. لمزيد من التفاصيل، انظر، الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص١١٨-١١٩.

حرص أفراد مجتمع إفريقية أيضًا على **أداء العزاء** كسُنة فيها كثير من الأجر والثواب [٥٤٠]، ورغم كراهة البعض لتلقي العزاء عند القبر [٥٤١]، وتفضيل تلقيه في المنزل [٥٤٢]، إلا أن القبر ظل مكانًا لأداء وتلقي العزاء[٥٤٣].

يلي أداء العزاء وتلقيه حضور ما يسمى المأتم ويعرف بـ **"صبيحة القبر"**[٥٤٤] أو "صبحة القبر" [٥٤٥]، أو "تصبيح القبر" [٥٤٦]، أو "الاجتماع في الصبحة" [٥٤٧] أي اجتماع أهل الميت وأقاربهم ومعارفهم حول القبر صبيحة الموت، وربما وَجَد أهل الميت على من تخلف عنها، مما زاد من حرص الناس على حضورها [٥٤٨]، لاسيما حضور صبيحة قبر الصلحاء والعلماء والعُبَّاد، حزنًا وتبركًا، والتي لم يتخلف عنها حتى بعض العلماء والفقهاء، فقد وقف حمديس القطان على قبر جبلة بن حمود الصدفي (ت٢٩٩هـ/٩١٢م)صبيحة موته [٥٤٩]، ولما سئل أبو الحسن القابسي عما يفعله الناس من حضوره والاجتماع له، ومدى البدعة في ذلك، أكد أن الفقيه أبا محمد بن أبي زيد كان يحضره، وأن رجلا أتى إلى الشيخ أبي إسحاق السبائي يصف له جميع من حضر عندهم في صبيحة قبر إحدى قريباته، وهو ما أثار استحسان

---

(٥٤٠) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٥٠٩.

(٥٤١) ابن أبي زيد، مصدر سابق، ج١، ص٦٦٢.

(٥٤٢) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٥١٠.

(٥٤٣) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٣.

(٥٤٤) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص٩٣؛ الونشريسي، ج١، ص٣٣٩.

(٥٤٥) ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧٧.

(٥٤٦) الشاطبي، **الفتاوى**، ط٢، تحقيق، محمد أبو الأجفان، الوردية، تونس، ١٩٨٥، ص٢٠٩.

(٥٤٧) الطرطوشي، **الحوادث والبدع**، ط٣، تحقيق، علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ١٩٩٨، ص١٧٥.

(٥٤٨) ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧٧.

(٥٤٩) عياض، مصدر سابق، ج١، ص٥١٤؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٠.

السبائي[٥٥٠]، كذلك حرص أهل القيروان على حضور صبيحة قبر المؤدب محرز بن خلف (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م) بتونس، ومنهم أبي محمد عبد الله قاضي ميلة، وأبي عبد الله محمد بن أحمد الخياط الواعظ [٥٥١]. هذا في حين كره البعض حضوره كأبي عمران الفاسي، الذي هجر بعض أصحابه ما يزيد عن شهرين لحضوره صبيحة قبر [٥٥٢]، أما ابن التبان (ت٣٧١هـ/٩٨١م) فلم يخرج في صباح قبر أمه، وانتظر حتى انقضى الناس عنه، فذهب هو ومن يختص به فقط [٥٥٣]. على ذلك النحو تباين موقف الفقهاء والعلماء إزاء صبيحة القبر؛ مما دفع القاضي عياض (ت٥٤٤هـ/١١٤٩م) إلى الرخصة فيه عن أهل القيروان [٥٥٤]. كما جرت العادة أن يقوم أهل الميت بفرش البسط عند القبر لاستقبال من يأتيهم في الصبحة [٥٥٥].

ومما يجب التنويه عليه في هذا الصدد، وحسب رواية أبي الحسن القابسي أن الناس كانوا حريصين في الغالب على حضور صبيحة قبور الأغنياء من الناس دون الفقراء؛ وهو ما دفعه إلى استنكار ذلك، وتوجيهه لأحد الأشخاص حتى يسير فيحضر صبيحة أحد الفقراء [٥٥٦]، ولا ريب أن سلوك الناس ذلك المسلك يرتبط بالتمايز الاجتماعي، الذي يدفع علية القوم إلى حضوره؛ رجاء مشاطرتهم الحزن لبني طبقتهم، في حين يدفع الفقراء لحضوره؛ رجاء ما يمكن أن يحصلوا عليه من الطعام والصدقة، التي دأب البعض على توزيعها في تلك المناسبات.

---

(٥٥٠) الونشريسي، ج١، ص٣٣٨-٣٣٩.

(٥٥١) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص٩٣-٩٤.

(٥٥٢) الطرطوشي، مصدر سابق، ص١٧٦.

(٥٥٣) الونشريسي، ج١، ص٣٣٩.

(٥٥٤) الشاطبي، مصدر سابق، ص٢١٠.

(٥٥٥) ابن الحاج، مصدر سابق، ج٣، ص٢٧٨.

(٥٥٦) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٩.

اعتاد الناس أيضًا بعد انقضاء صبيحة القبر، الاجتماع عنده **وقراءة القرآن** على الميت مدة سبعة أيام [٥٥٧]؛ اعتقادًا أنه يُفتن ويُحاسب في قبره تلك المدة [٥٥٨]، وفي اليوم السابع يُصنع ما يعرف **بعشاء القبر** وهو طعام يصنع للقراء على الميت [٥٥٩]. وربما يداوم الناس على القراءة لموتاهم لشهور وسنوات [٥٦٠]، وهو ما أجازه الفقهاء على سبيل الاعتبار أو الدعاء للميت أو السلام عليه [٥٦١]، أو للترحم والاستغفار له؛ [٥٦٢]فضلا عن انتفاع الميت بتلك القراءة [٥٦٣].

تعهد الناس ـ ولا زال ـ قبور موتاهم **بالزيارة في أيام الجمع والمواسم**[٥٦٤]، وغيرها من الأيام بغرض الدعاء والترحم، وهو ما كان يفعله القابسي عند قبر والديه بباب تونس، فضلا عن دعائه في الوقت ذاته للصلحاء المدفونين في تلك الجهة كأبي عبد الرحمن الحُبُلي (ت١٠٠هـ/٧١٩م) ـ أحد من أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيزليفقهوا أهل إفريقية ويعلمونهم أمور دينهم [٥٦٥] ـ اشتملت زيارة البعض كذلك على تأبين الميت وذكر محاسنه ومآثره، وهو ما كانت تفعله أم جلدين (ق٣هـ/٩م) ـ إحدى صالحات الأباضية ـ عند قبور أولادها الأربعة [٥٦٦]، ومما قاله أحد رجال السلطة عند

---

(٥٥٧) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٣.

(٥٥٨) المصدر نفسه، ج١، ص٣١٣.

(٥٥٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣١٧.

(٥٦٠) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٥٦١) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ٥١٤-٥١٥.

(٥٦٢) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣١٩.

(٥٦٣) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢١.

(٥٦٤) يحيي بن عمر، مصدر سابق، ص١٢٥؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٠.

(٥٦٥) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٠؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٨٤.

(٥٦٦) البغطوري، مصدر سابق، ص١٥٦.

قبر أبي مسور بن وجين اليراسني (ط٧، ٣٠٠-٣٥٠ه): "عاش حميدا ومات فقيدا، اللّهم ارحمه وأعد على بلده وأهل بيته. . . . " [٥٦٧]. كما لم تخل الزيارة من بعض أشكال المخالفات، كاختلاط الرجال والنساء عند المقابر في الليالي المقمرة للاستماع إلى الوعاظ والمحدثين من القصاص، وهو ما كان يصحبه أشكال من التزين والتبرج لاسيما أيام الأعياد [٥٦٨]، فضلا عن خروج النساء من قرابة الميت بصحبة جيرانهن إلى القبر، وهن يعمدن إلى البكاء والصراخ والنواح بصوت عال؛ مما دفع الفقهاء إلى التصدي لمثل تلك السلوكيات، عبر فتاوى تحرم على النساء الخروج للقبر مطلقًا حتى ولو للدعاء والترحم على الأولاد والأزواج، وهو ما أفتى بهعدد من فقهاء إفريقية مثل يحيي بن عمر (ت٢٨٩ه/٩٠٢م) وابن يونس التميمي (ت٤٥١ه/١٠٥٩م) [٥٦٩]. وعلى مستوى السلطة فقد حاول الخليفة المعز لدين الله الفاطمي القضاء على تلك العادات بتكليف أعوان لمراقبة النائحات، وعقابهن بالضرب، أو بالزج في السجون، [٥٧٠]لكن يبدو أن كلا من فتاوى الفقهاء وتشديدات السلطة لم تكن رادعًا للنساء على مدار الفترة المدروسة، وهو ما تفيده رواية عن أبي محمد عبد الله بن فطيس المتعبد (ت٣٣٩ه/٩٥٠م) الذي كان يسمع نواح النساء في مقبرة باب نافع وهو في بيته [٥٧١].

لا ريب أن زيارة القبر أو حضور الدفن كان **دافعًا لأخذ العظة والعبرة على المستوى الشخصي** إزاء ما يقترفه الإنسان في حياته من الخطايا

---

(٥٦٧) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص١٦٦.

(٥٦٨) ابن الحاج، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٨، ٢٨٦، ج٢، ص١٦.

(٥٦٩) يحيى بن عمر، مصدر سابق، ص١٢٥؛ ابن يونس، مصدر سابق، ج٤، ص٥٠٥؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٠.

(٥٧٠) القاضي النعمان، **المجالس والمسايرات**، ص٥٣٥.

(٥٧١) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٩.

والذنوب[٥٧٢]، ثم ما يؤول إليه مصيره بعد دفنه تحت التراب [٥٧٣] لاسيما إن كان المدفون من ذوي الوجاهة في الدنيا، فقد أكدت رواية الرقيق القيرواني أن أهل القيروان كانوا يتعهدون قبر كل من روح بن حاتم وأخيه يزيد "للعظة بما كانا فيه من السلطان والقدرة" [٥٧٤]. أما على المستوى الاجتماعي فقد كان **محركًا على أداء الصدقة والتفاني في فعل الخير**، يتضح ذلك في مسلك هاشم بن مسرور المعروف بصاحب الفرن (ت٣٠٧هـ/٩١٩م) الذي كان يحرص على حضور الجنائز ويجلس على شفير القبر وينظر إلى اللحد، ويقول: "ما أحوج هذا القبر إلى فرش"؛ فيذهب ويتصدق بأحسن ثيابه، وإذا نظر إلى التراب وهو يهال على الميت، يقول: "ما أحوج هذا القبر إلى ضياء ونور"؛ فينصرف ويتصدق على الأرامل والمساكين والضعفاء والمستورات بالأموال والزيت والكتان [٥٧٥]؛ لتستعمله النسوة في إتمام غزلهن؛ وهو ما يتيح لهن فرصة لكسب العيش.

ومن المفيد الإشارة إلى أن أعمال البر والإحسان لم تتوقف على الأفراد بشكل مباشر، وإنما تعدتها إلى وقف الأحباس على المقابر ليرتفق بها عامة الناس ويتحقق الغرض من إنشائها، ومن ذلك أن حبس البعض أرضًا على مقبرة؛ لينفق منها على إجارة النعش والمغسل وحافر القبر ومواراة الغرباء[٥٧٦]، كما حرص الناس على وقف الأحباس على ضريح وزاوية الفقيه المالكي ابن أبي زيد القيرواني (٣٨٦هـ/٩٩٦م) [٥٧٧]، وذكر ابن ناجي عادة

(٥٧٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٣.

(٥٧٣) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣.

(٥٧٤) قطعة من تاريخ المغرب، ص١٣٦.

(٥٧٥) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٤٥-١٤٦؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٢.

(٥٧٦) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص١٥٠.

(٥٧٧) انظر مقدمة تحقيق كتاب **الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ** لابن أبي زيد القيرواني، تحقيق، محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ص٧٤.

كانت جارية في القيروان ـ حتى فترات لاحقة ـ وهي زيارة قبر الفقيه أبي عمران الفاسي من قبل المسافرين الراغبين في النجاة من الأخطار وتقديم الأعطيات على شكل نذور وأحباس (٥٧٨).

ويبدو أن زهد البعض، أو ضيق ذات يدهم وعدم القدرة على توفير مسكن؛ هو ما دفعهم إلى **اتخاذ سكنهم بالمقابر**، حيث ترد إشارة عن أبي سعيد كيسان (ت١٠٠هـ/٧١٩م) أحد فضلاء التابعين القادمين إلى القيروان، لقبه الَناس بـ "المقبري"؛ لأنه "سكن المقبرة " أو كان منزله عند المقابر (٥٧٩). وبالمثل اتخذ أبو عبد الله محمد بن أبي سهل الصوفي (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) كوخًا في المقبرة يأوي إليها (٥٨٠). كما كانت المقبرة أيضا **سبيلا لإطعام** البعض من الفئات الفقيرة والمعدمة، وهو ما يتضح من فتوى سحنون ومن بعده اللخمي أباحا فيها للناس الأكل من ثمر الشجر الذي ينبت في المقبرة على غرار ما ينبت في صحن المسجد أو في الطريق العام (٥٨١).

كان من العادات الاجتماعية المرتبطة بالقبر أيضًا **وداع البعض لقبور ذويهم** عند سفرهم، وهو ما أجازه الفقهاء (٥٨٢)، فقد ودع أبو الحسن بن عبد الغني الكفيف (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م) المعروف بالحصري، قبر أبيه بالقيروان قبل جوازه إلى الأندلس، ولم يكتف بذلك بل أخذ معه من تراب القبر (٥٨٣)،؛ وهو ما يشي بعلاقة وجدانية وذهنية بين القبر والأحياء.

---

(٥٧٨) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٤.

(٥٧٩) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص١٢٣، هامش (٣).

(٥٨٠) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٠٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠.

(٥٨١) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٠؛ الونشريسي، ج٧، ص٤٣٦.

(٥٨٢) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢١.

(٥٨٣) الحصري القيرواني، **ديوان المتفرقات**، تحقيق، محمد المرزوقي، الجيلاني الحاج يحيى، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٣م، ص١٢٩.

ارتبطت المقابر كذلك بعدد من **السلوكيات الفردية السلبية، وبعض الجرائم الأخلاقية**، التي حاول الفقهاء والصلحاء مجابهتها بطرق عدة سواء عبر فتاويهم، أو المجابهة الواقعية عبر تغيير المنكر، أو بإنزال العقوبات الكرامية الرادعة بحق من يتجرأ على حرم أولياء الله الصالحين بفعل الفاحشة.

فليس من غريب أن نجد ضمن أسباب إصدار الفقهاء فتاوى بهدم ما بني على القبور من السقائف والقباب والروضات؛ سبب يتعلق بالحيلولة دون استتار أهل الشر والفساد بها (٥٨٤)، " مع توقع جرأة من لا يتقي الله تعالى على مواقعة المعاصي بها للاستتار الكائن بها عن كثير من الاطلاع"(٥٨٥). وعندما أباحوا ذلك لأصحاب المقابر الخاصة، اشترطوا أن يكون ذلك المكان محكمًا ولا يأوي إليه أهل الفساد (٥٨٦). وهو ما يعد اعترافًا ضمنيًا بأن المقابر شكلت مكانًا لارتكاب عدد من الجرائم، لاسيما الأخلاقية منها. وفي الإطار ذاته يبدو أن الفتوى بتحريم خروج النساء للقبر مطلقًا حتى ولو للدعاء والترحم على الأولاد والأزواج (٥٨٧)، قد جاءت للحيلولة دون اختلاط النساء بالرجال وما ينتج عن ذلك من أوجه الفساد والمراودة (٥٨٨). ولكن يبدو أن تلك الفتاوى والتشديدات لم تكن رادعة لبعض الأفراد؛ لذا تكررت الإشارات عن ارتكاب الجرائم الجنسية بالمقابر، ومن قرائن ذلك أن وجد الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (ت٣٣٨هـ/٩٥٠م) بمقبرة باب سلم امرأة مع رجل "في مجنبة قد أمكنته من نفسها"؛ فاتجه نحوهما صائحًا بـ "لا

(٥٨٤) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣٠٨؛ البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٨٨.

(٥٨٥) الونشريسي، مصدر سابق، ج٢، ص٥٠٠.

(٥٨٦) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٦-٥١٧؛ الونشريسي، ج١، ص٣١٧.

(٥٨٧) يحيى بن عمر، مصدر سابق، ص١٢٥؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٦، ص٤٢٠.

(٥٨٨) عرضت كتب الحسبة الأندلسية لمسألة الاختلاط والمراودة والحيل التي يتبعها بعض الحساب والقصاص لاسيما أوقات المواسم والأعياد وما اتخذوه من أخبية بغية الانفراد بالنساء. انظر، ابن عبدون، مصدر سابق، ص٢٧.

حول ولا قوة إلا بالله" فتركها الرجل وهرب [٥٨٩].

كذلك وُظِفت كرامات الأولياء والصلحاء المقبورين في مواجهة الانحلال الاجتماعي والأخلاقي؛ وهو ما يتكشف من خلال بعض الوقائع التي حدثت بالمقابر، ومنها ما وقع في حرم ضريح الولي الصالح سيدي معاوية بن عتيق (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) حيث قَبَّل رجل ثغر امرأة؛ فعوقب وما "برح من مكانه حتى أصيب في بدنه وما رفع إلا على حمار"، [٥٩٠]كما كانت القبور في بعض الأحيان مكانًا لممارسة الشذوذ بين الأحداث، وهو ما يستدل عليه من اعتراف صاحب الذنب وأنه عوقب بمرض جنسي لم يبرأ منه إلا بملازمة الاعتراف بالذنب وطلب التوبة عند قبور الصلحاء [٥٩١].

وفي السياق ذاته، دأب بعض مدمني الخمور على شربها بالمقابر، وما يتبع ذلك من إساءة الأدب في القول والفعل، وهو ما عوقب بشأنه أحد الأشخاص بالأسر، [٥٩٢]وكما سبقت الإشارة إلى ارتكاب بعض اللصوص لجريمة نبش القبور وسرقة أكفان الموتى، فقد تجرأ آخرون على سرقة الأموال التي يضعها الناس على قبور الأولياء والصالحين كنذور ولقوا عقوبتهم في الحال. [٥٩٣]، وهذا يقودنا حتمًا إلى ضرورة البحث في الذهنيات والمعتقدات الشعبية والغيبية، المرتبطة بالمقابر بوجه عام ومقابر الأولياء والصالحين على نحو خاص، والتي شكلت وصاغت العقلية الفردية والجماعية في مجتمع إفريقية حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وما تلاه من القرون.

---

(٥٨٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٦٣-٣٦٤؛ القاضي عياض، **المدارك**، ج٢، ص٥٦؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٤٢.

(٥٩٠) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ١٣، ص١٩٣.

(٥٩١) المصدر نفسه، ملحق ١٣، ص١٩٣.

(٥٩٢) المصدر نفسه، ملحق ١٣، ص١٩٣.

(٥٩٣) المصدر نفسه، ملحق ١٣، ص١٩٣.

ثامنا: القبر والذهنيات الفردية والجماعية:

لا ريب أن الذهنيات والمعتقدات الشعبية والغيبية التي يتسم بها أي مجتمع، هي نتاج لبنى سياسية اقتصادية اجتماعية ثقافية ودينية، ومن ثم برزت معتقدات عدة كان القبر قاسمًا مشتركًا فيها، منها ما عبر عن عميق الصلة بين الله والبشر، ومنها ما عبر عن العلاقة بين الأحياء والأموات، فضلًا عن غيبيات أخرى تمثلت في تمام الاعتقاد في مقابر أولياء الله الصالحين والتعلق بها مثلما كان الاعتقاد في أصحابها وهم أحياء.

ففضلًا عن الاعتقاد الجازم بأن المقابر **سكن للجن** (٥٩٤)، سيطرت على عقليات البعض اعتقادات بأن ثمة دلائل ـ ذات صلة بالقبر ـ **تُنبئ عن رضا الله عن المتوفى**، ومن ذلك القناعة التامة في الوسط الأباضي بأنه من المستحسن أن يموت الإنسان يوم الخميس ويبيت في قبره يوم الجمعة، فذلك من أهم علامات الرضا والرأفة من الله بعبده (٥٩٥)، كما كان سماع القرآن من داخل القبر دليلًا على صلاح صاحبه وهو ما أكده الجائزون بقبر أبي يونس المتعبد (ت٣٠٤هـ/٩١٧م) (٥٩٦). ويبدو أن مداومة الناس على عادة قراءة القرآن على قبر الميت لأكثر من سبعة أيام كانت من الأهمية بمكان؛ حتى دلل بها أبو الطاهر الفارسي على كرامة وولاية الفقيه المالكي محرز بن خلف (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م)، الذي كان القرآن يُقرأ كل يوم على قبره، ويُختم كل جمعة، لمدة ثماني عشرة سنة منذ وفاته دون انقطاع (٥٩٧). وبالمثل كانت رؤية النور الساطع على القبر دلالة على جلالة صاحبه ورضا الله عنه (٥٩٨)، ومن

(٥٩٤) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٣٦١؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٠.

(٥٩٥) البغطوري، مصدر سابق، ص٤١.

(٥٩٦) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٤.

(٥٩٧) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٢٦.

(٥٩٨) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٨-٩٩؛ الحميري، مصدر سابق، ص٥٢١.

المواضع المشهورة بذلك موضع قرب طرابلس يجزم الأباضية أنه موضع استشهاد ودفن الزعيم الأباضي أبي حاتم الملزوزي هو وأصحابه على يد يزيد بن حاتم الأزدي قائد العباسيين عام ١٥٥هـ /٧٧١م [٥٩٩]، وهو ما يحمل بين طياته دلالات مذهبية واضحة للعيان، كذا موضع قبر الفقيه المالكي يحيي بن عمر (ت٢٨٩هـ/٩٠٢م) بسوسة، كان عليه نور عظيم هال عناصر السودان المكلفة بهدم القبر، فلم يجسروا على ذلك، كما سبقت الإشارة [٦٠٠]، ومثله موضع قبر الفقيه أبي القاسم عبد الرحمن، المعروف بابن الكاتب (ت٤٠٨هـ/١٠١٧م) خارج القيروان، الذي شهد من رآه أنه لم ير مثله على قبر أحد [٦٠١].

كانت رؤيا تزيين المقابر بالجوهر والياقوت والقباب والجواري الحسان دليلًا على رضا الله عن المقبور أيضا، واستعدادًا لاستقباله، وهو ما اختص به أبو جعفر القمودي (٣٢٤هـ/٩٣٦م)، الذي رأى أحد مريديه في منامه بطرف المقبرة التي دفن بها قصورًا مملوءة بالجوهر والياقوت وفيها جوارٍ حسانٍ، كما رأى قبابًا وأبوابًا قد فتحت في السماء ونورًا عظيمًا؛ استعدادًا لاستقبال القمودي الذي بات في مخيلة صاحب الرؤية "عروس سوسة" [٦٠٢]. وفي السياق ذاته يأتي اعتقاد البعض باتساع القبر لدرجة لا يمكن إدراكها أو تعيين حدودها، وهو ما يتعلق بقبر الشيخ الأباضي إسماعيل التناوتي الذي لم يبصر ولم يدرك من قام بدفنه أطراف القبر [٦٠٣]، وهو ما ينطبق على قبر الفقيه

---

(٥٩٩) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص٤٠.

(٦٠٠) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٩٤-٤٩٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٠؛ ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص٣٥٦.

(٦٠١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٥.

(٦٠٢) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣١.

(٦٠٣) الشماخي، مصدر سابق، ص٤٩٩؛ الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٨٩٩؛

الأباضي أبي محمد التمصمصي (ق٤هـ/١٠م)؛ فاستُدل بذلك على صواب المذهب الذي كان يعتنقه المتوفى [٦٠٤]. وبالمثل كان بقاء الجثة دون تغير رغم مرور الزمن، وهو ما يتعلق برجل ـ كان يرعى غنم الشيخ الأباضي أبي عبد الله التغرميني ـ قتل في معركة بين الأباضية وأعدائهم من صنهاجة، وبعد فترة من الزمن جرف السيل قبر ذلك الراعي "فوجدوه كأنه حي ولم يتغير من لونه" [٦٠٥]، وهو ما يعيدنا للصراع المذهبي ودلالاته على اعتبار كل فرقة أن قتلاها من الشهداء الخالدين.

كما اعُتبر انبعاث الروائح العطرة كالمسك وغيره من القبر، علامات نجاة المقبور من عذاب القبر، وهو ما شُهد به لقبر أبي محمد التمصمصي الذي انبعثت من قبره ساعة دفنه رائحة طيبة [٦٠٦]، وإسماعيل التناوتي الذي عبق العطر من قبره [٦٠٧]، والفقيه محرز بن خلف، الذي انبعثت من قبره رائحة المسك وملأت الموضع؛ مما حدا بالشعراء إلى ذكر ذلك في المراثي التي رثوه بها [٦٠٨]. تنهض كذلك رؤيا بعض الأحياء بعض المقبورين يقرؤون القرآن بقبورهم، دليلا على نجاتهم من سؤال الملكين، وهو ما ينطبق على متعبد يعرف بالباجي، كان شيخا لأبي الفضل الغدامسي (ت٣٤٩هـ/٩٦٠م) المتعبد بالمنستير [٦٠٩]. وبالمثل كانت رؤية الطيور البيضاء على قبر الميت علامة على رضا الله [٦١٠]، وجزاءً لصبر المقبور على ما حل به من المصائب،

---

(٦٠٤) البغطوري، مصدر سابق، ص٦٨.

(٦٠٥) المصدر نفسه، ص١٤٦؛ الشماخي، مصدر سابق، ص١٨٤.

(٦٠٦) البغطوري، مصدر سابق، ص٦٨.

(٦٠٧) الشماخي، مصدر سابق، ص٤٩٩.

(٦٠٨) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص٩٣-٩٤.

(٦٠٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤١-٤٤٢.

(٦١٠) البغطوري، مصدر سابق، ص١٤٦؛ الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٥٨.

نموذج ذلك رواية أبي الحسن القابسي ـ نقلها عن رجل ثقة ـ أنه رأى على نعش أبي بكر بن أبي عقبة التميمي (ت٣٦٩هـ/٩٨٠م) وهو أحد أهل العلم "طيرًا أبيضًا يرفرف عليه من داره إلى أن أُنزل في قبره" (٦١١)، وهو ما ينطبق على الشيخ الأباضي أبي عبد الله بن أبي محمد التغرميني الذي تبعه طائران أبيضان إلى قبره، فاستقر أحدهما عند موضع رأسه والآخر عندقدميه، وهو ما عده من حضر دفنه جزاءً له على صبره وتقبله لمصيبته في فقد ولديه وراعي غنمه في إحدى مواجهات الأباضية مع صنهاجة (٦١٢). وفي السياق ذاته تأتي رؤية الملائكة عند قبور الصالحين ليؤكدوا للناس فضل صاحب القبر، ويحضونهم على التماس بركته، ففي ترجمته لرباح بن يزيد المتعبد بالقيروان، ذكر الدباغ أن رجلًا رأى عند قبره ملكًا يقول له "ما أغفلكم يا أهل القيروان عن زيارة صاحب هذا القبر" ثم طار بين السماء والأرض (٦١٣). ونقلت بعض مصادر الأباضية شهادة ابنة حمو بن اللؤلؤ ـ أحد صلحاء الأباضية ـ والتي رأت ملكين في هيئة فارسين أخضرين ينزلان قبر أبيها إثر دفنه (٦١٤).

وفي المقابل ظهرت معتقدات مغايرة مرتبطة أيضا بالقبر، تومئ بعلامات تدلل على **المغضوب عليهم من الله**، الذين إما ارتكبوا ذنوبًا أو عقوقًا لأولياء الله الصالحين، أو خالفوا مذهب السنة والجماعة، ومن أشد تلك العلامات أن تطرح الأرض جثة الميت مرارًا، وهو ما حدث لجثة الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي (297هـ/٩٠٩م - ٣٢٢هـ/٩٣٤) بسبب احتفاظه بالحجر الأسود ـ أرسله له الجنابي زعيم القرامطة إثر اجتياحه لمكة المكرمة عام٣١٧/٩٠٨م ـ ولم تتقبله الأرض إلا بعد أن نصح الناس ابنه القائم برد الحجر الأسود إلى

(٦١١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٨٧.

(٦١٢) البغطوري، مصدر سابق، ج١، ص١٤٦؛ الشماخي، مصدر سابق، ص١٨٤.

(٦١٣) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٣.

(٦١٤) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٨١٣؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٥١٤.

موضعه، وذلك حسب الرواية السنية [٦١٥]. وهي لا ريب ذهنيات تعكس رفض ذلك الفعل الجلل الذي أقدم عليه الجنابي بانتهاكه حرمة البيت الحرام، كما تعكس أيضا جذوة الخلاف المذهبي بين السنة والشيعة لاسيما وقد جاء النص مصحوبًا بعبارات اللعن سواء للقرامطة أو الفاطميين.

كان ظهور الثعبان بقبر الميت، والتصاقه بجسده من أبشع العقوبات المعبرة عن سخط الله وعقوق أوليائه، وهو ما ينسحب على امرأة الصالح أبي زيد التمزغورتي؛ فبسبب عصيانها له وعدم التزامها بالفرائض، وجدوا ثعبانًا قد طوق عنقها في قبرها فنقلوها لقبر ثان وثالث، ولما يأسوا أهالوا عليها التراب وتركوها [٦١٦]. وقد اكتشف بعض الأباضية عند نبشهم لقبر بغرض استرجاع أداة الحفر المعروفة عندهم بالمسحة أن يدي الميت وعنقه في عين المسحة؛ فهالهم ما شاهدوا ورجعوا يسألون زوجته عن أفعاله في الدنيا؛ فأخبرتهم أنه كان إذا أصبح يقول لجاره اليهودي: "لم ندر من هو على الهدى والطريق نحن ولا أنتم. . . فأعطي ذلك لشك في دينه. . . " [٦١٧].

برزت ذهنيات أخرى تشي بعمق **الصلة بين الأموات والأحياء** وأن ارتكاب أي فعل يغضب الميت؛ سيحركه في قبره ويسبب له عدم الراحة، كزواج أحد الأقارب من زوجة الميت مثلًا [٦١٨]. كما ارتبط القبر بما على الميت من ديون وغيره، فقد وجد أبو هارون التملوشائي (أواخر ق٤هـ/١٠م) ـ عمل بالتدريس والإفتاء وحكم جبل نفوسة ـ جلبانًا نابتًا على قبر أمه، ولما سأل عن ذلك؛ وجد على أمه جلبانًا لامرأة، فأعطاها إياه [٦١٩].

---

(٦١٥) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٦١٦) البغطوري، مصدر سابق، ص٨٣؛ الشماخي، مصدر سابق، ص١٦٩.

(٦١٧) البغطوري، مصدر سابق، ص١٠٦.

(٦١٨) الوسياني، مصدر سابق، ص٣٥٢؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٤٦٢.

(٦١٩) البغطوري، مصدر سابق، ص٤٤؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٢٥٢.

اقترنت تلك الثقافة الغيبية في مجتمع إفريقية بالاعتقاد في **تبجيل الأولياء والصالحين**، بشكل عز نظيره في مختلف أرجاء العالم الإسلامي [٦٢٠]. والحقيقة أن التشبث بهؤلاء الصلحاء وكراماتهم [٦٢١] كان الملجأ الوحيد لقطاعات كبيرة من المجتمع كي تخرج من ربقة الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية، وتأمل ببعث مجتمع جديد قد تحلل من تلك الأزمات التي ألمت بالعوام على نحو خاص [٦٢٢]، الذين وجدوا في ذلك التبجيل القدرة على مواجهة مشكلات الحياة التي يعجزون عن حلها كظلم الحكام أو الضيق المالي أو الأمراض والأزمات الصحية وغيرها من المعضلات اليومية [٦٢٣]. ومن ثم برز أثر الولاية وظهرت الكرامة الصوفية كتعبير عن الواقع المعاش سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، تلك الكرامة التي لاقت إيمانًا وتقديسًا لها من قبل العوام والخواص على حد سواء؛

---

(620) Masse (H): Le Islam,Paris,1966. p. 175.

(٦٢١) البغطوري، مصدر سابق، ص٤٤؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٢٥٢. والمقصود بالكرامة الصوفية، الأفعال الخارقة للعادة من قبل الأولياء والصالحين، وقد جاء تواردها كسمة غالبة في كتب المناقب، التي أجمع الباحثون على صلتها الوثيقة بالتاريخ. حيث يمكن توظيف الكرامة والإفادة منها وتأويلها واستخراج الدلالات المضمرة، والتي لها وجود محسوس على أرض الواقع. فالكرامة تهدف إلى استعمال معطيات الواقع لبناء الممكن والمبتغى، فهناك إذا دينامية بين العالم الواقعي (المتأزم) والعالم البديل بحيث يمكن الذهاب من العالم الواقعي للعالم الممكن. انظر: محمد العمراني، **"كتب المناقب وترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية"**، مجلة أمل، مج١٦، عدد ٣٥، ٢٠٠٩م، ص ٥٢-٥٣.

(٦٢٢) عن أثر الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظهور مجتمع التصوف والولاية انظر، إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع- الذهنيات – الأولياء**، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت١٩٩٣، ص١٢٥-١٣٠؛ محمد الشريف، **نصوص دفينة ودراسات**، ط٢، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تيطوان١٩٩٩م، ص١٢.

(٦٢٣) حسين مؤنس، **"الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى"**، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، عدد٢١، مدريد ١٩٨١-١٩٨٢، ص٨٢.

ومن ثم كان هناك إيمان لا يقبل الجدل أو الشك في أولئك الأولياء، وبناءً على تلك القناعة النفسية انتشرت ظاهرة التبرك والاستشفاء والتوسل بالأولياء، والصالحين والعُبَّاد والعلماء الذين وصلوا إلى مقام الولاية؛ لذا كانوا ملجًا وقت الملمات، يؤمهم الناس بأعداد كبيرة في حياتهم (٦٢٤)، وفي قبورهم بعد مماتهم، **ومن أشهر القبور المعتقد فيها اعتقاد تام بإجابة الدعاء**، وكانت ـ حتى فترات لاحقة ومتأخرة ـ مزارات معروفة للخاص والعام بالقيروان: قبر الفقيه المالكي أبي محمد بن أبي زيد (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) (٦٢٥)، وقبر الفقيه المالكي أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ/١٠١٣م) (٦٢٦)، وقبر أبي الحسن علي بن محمد الربعي المعروف باللخمي (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) (٦٢٧)، وفي تونس

(٦٢٤) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ٥٠٢؛ أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٩٢؛ القاضي عياض، المدارك، ج٢، ص ص٧٠، ٧١.

(٦٢٥) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١١٩.

(٦٢٦) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٤٣؛ مقديش، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٧.

(٦٢٧) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١٩٩-٢٠٠. من مواضع القبور المشهورة بالبركة وإجابة الدعاء أيضا على سبيل المثال لا الحصر، قبر أبي زمعة البلوي (ت١٠٠ه) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٠، قبر البهلول بن راشد (ت١٨٣ه) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٠، وقبر شقران المتعبد (ت١٨٦ه) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٧، وقبر القاضي عبد الله بن غانم (ت١٩٠ه) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٣١٣، وقبر أبي سعيد بن عباد السرتي (ت٢٥١ه) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٠، وقبر جبلة بن حمود الصدفي (ت٢٩٩ه)القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٥١٤؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٩-٢٨٠، وقبر القاضي حماس بن مروان (ت٣٠٤ه) الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٠، وقبر رباح بن يزيد المتعبد (ت١٧٢ه) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٣، وقبر أبي القاسم عبد الخالق بن خلف بن شبلون (ت٣٩٠ه) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٤، وقبر أبي بكر بن يوسف الخزاعي، الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ١٢١، وقبر أبي الحسن علي بن عبد الله القطان المعروف بابن الخلاف (ت٣٩١ه) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٥، وعبد الرحمن بن عبد الله الخولاني (ت٣٩٥ه) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٧، وقبر أبي إسحاق الجبنياني (ت٣٦٩ه) اللبيدي، مصدر سابق، ص٤٢؛ مقديش، مصدر سابق، ج٢، ص٢٥٩.

مواضع قبور عدة "يعتقد الناس أنها أمان لزائرها من السلب بعض العطاء"، كمحيط مسجد الصفصافة وفيه أربعمائة وستمائة قبر لأولياء شهداء، وجبل الزلاج وشرف المركاض، ورادس [٦٢٨]، والدعاء في جميعها مستجاب ويأتيها الناس من كل مكان حتى من مراكش [٦٢٩]. ومن القبور الشهيرة بتونس أيضا قبر أحمد بن نفيس (ت٤٧٩هـ/١٠٨٦م) الذي كان الناس يأتونه ليل نهار يتوسلون به إلى الله في قضاء حوائجهم [٦٣٠]. لذا فيبدو أن من تبنوا تيار الانهزامية في الحركة الصوفية ـ من المشايخ وأهل الولاية والصلاح ـ بدأوا حض الناس على زيارة تلك القبور والتوسل بها مما حل بهم من المصائب [٦٣١]، وذلك حتى فترة متأخرة عن فترة الدراسة، فمن أقوال الفيلسوف والمتصوف الأندلسي ابن سبعين المرسي (ت٦٦٩هـ/١٢٦٩م) في هذا الصدد: "أكثروا من زيارة جبل الزلاج إذا نزلت بكم المصائب. . . فلا تغفلوا فإنه موصل زائره إلى الله" وقال غيره: "إذا غلت الأسعار، وقلت الأمطار، وسادت السفهاء، بينكم والأشرار، وتقوت عليكم فتنة الملوك والكفار، فقد آن لكم أن تستغيثوا بأهل الزلاج السادات الأبرار. . . ". [٦٣٢].

وبالمثل فإن الوسط الأباضي، ارتقى بمشايخه و فقهائه وعُبَّاده إلى أعلى مراتب الولاية؛ ومن ثم كان التبرك بقبورهم وتعهدها بالزيارة من العادات الراسخة عندهم [٦٣٣]، حتى كان قبر سعيد بن نوح بن زنغيل (ط٨، ٣٥٠-

---

(٦٢٨) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ١٢، ص١٨٥-١٨٦.

(٦٢٩) المصدر نفسه، ملحق ١٢، ص١٨٣.

(٦٣٠) المصدر نفسه، ملحق ٦، ص١٦٢.

(٦٣١) المصدر نفسه، ملحق ١٢، ص١٧٩-١٨٠. لمزيد من التفاصيل عن فضل مزارات تونس وعجائبها في إجابة الدعاء، انظر، أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ١٢، ص١٧٩-١٨٩.

(٦٣٢) المصدر نفسه، ملحق ١٢، ص١٨٠.

(٦٣٣) الوسياني، مصدر سابق، ج١، ص٣٧١.

٤٠٠هـ) أحد المزارات المهمة الذي يستغيثون به "عند نزول ما لا طاقة لهم بدفعه وعند المضايق" [٦٣٤]، وهو ما ينطبق على قبر أبي عبد الله محمد بن بكر (ت٤٤٠هـ/١٠٤٨م) المعروف بالبركة [٦٣٥]، ومن تمام اعتقاد الأباضية في مقبرة أوجلو ومقبرة بلدة بليل، أنهم عدوهما حرزًا لهم مما قد يصيبهم من هجمات أعدائهم ومخالفيهم، حتى أُثر عنهم القول بأنه: " ما جازها ولا وطئها عسكر وعاد لها مرة أخرى لما دفن فيها من الصالحين" [٦٣٦]. وهو ما يشي باكتساح تيار الصلاح والولاية والكرامة وتغلغله في النسيج المجتمعي المغربي بكافة أطيافه ومذاهبه.

نتج عن ارتباط الناس علميًا واجتماعيًا وولائيًا بعدد لا يستهان به من علماء وعباد وصلحاء إفريقية، أن **يظلوا على قبور هؤلاء لفترة من الزمن بعد وفاتهم،** وصلت في بعض الأحيان لشهور أو سنة؛ لذا اضطروا في كثير من الأحيان إلى ضرب الفساطيط والقباب عند القبور ليحتموا بها من الحرارة أو الأمطار، فقد أكد الرقيق القيرواني أن الفساطيط ضُربت على قبر القاضي سحنون (ت٢٤٠هـ/٨٥٤م) "حتى هجم على الناس الشتاء" [٦٣٧]. وبالمثل أقام الناس على قبر ابنه محمد (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م) شهورًا عدة؛ حزنًا وأسفًا على فراقه [٦٣٨]، ولا ريب أن طول تلك المدة، التي عدها البعض بأربعة أشهر، وعدها آخرون بسنة؛ قد دفعت الناس إلى ضرب الأخبية وإقامة الأسواق والبيع والشراء حول قبره لاسيما مع كثرة أعدادهم، وذلك دون

---

(٦٣٤) الشماخي، مصدر سابق، ص٥٥٠-٥٥١.

(٦٣٥) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٣٩٢.

(٦٣٦) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨٠.

(٦٣٧) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٥.

(٦٣٨) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٥٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٦.

إنكار من أحد من العلماء والفقهاء [٦٣٩]. ولما مات أحمد بن معتب بن الأزهر (ت٢٧٧هـ/٨٩٠م) شهد عدد كبير من عامة الناس ومشايخهم جنازته وباتوا على قبره [٦٤٠]، وفي أمم لا تحصى ضربت الأخبية أيضًا على قبر الفقيه المالكي أبي الحسن القابسي (٤٠٣هـ/١٠١٣م) لمدة عام كامل [٦٤١]، واحتسب بعض الناس أنفسهم لقراءة القرآن على قبره خلال تلك المدة [٦٤٢].

ومما يجب التنويه إليه أن الفقهاء والعلماء رغم إجازتهم لزيارة قبور الصالحين والشهداء على سبيل أنها أماكن مخصوصة بالبركة، إلا أنهم حرموا التوسل بها [٦٤٣]، إلا أن بعض المتأخرين أجازوا ذلك، استنادا إلى توسل عمر ابن الخطاب بقبر العباس، وذلك بمشهد جمع كبير من الصحابة والتابعين "وقبل مولانا وسيلتهم وقضى حاجتهم وسقاهم" دون إنكار من أحد [٦٤٤]؛ لذا يبدو أن تلك الخلافات وأشباهها قد أوجدت للناس سبيلًا؛ فحرصوا على زيارة قبور الصالحين بشكل منتظم في كثير من الأحيان والتوسل بها من أجل قضاء حوائجهم على اختلافها؛ لأنهم عدوها الملجأ الوحيد لتخفيف أزماتهم التي كانوا عاجزين عن حلها في ظل أوضاعهم المتردية على كافة الأصعدة لاسيما جموع العوام، ومن تلك القبور قبر أبي إسحاق الجبنياني (٣٦٩هـ/٩٨٠م) [٦٤٥]، وقبر المؤدب والزاهد محرز بن خلف، الذي كان

---

(٦٣٩) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٤٣٢؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٦؛ البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥١٥.

(٦٤٠) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٢.

(٦٤١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٣٥.

(٦٤٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٢.

(٦٤٣) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢١.

(٦٤٤) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢٢.

(٦٤٥) اللبيدي، مصدر سابق، ص٤٢.

بدار في تونس يُتبرك به [٦٤٦]، مع ما يتبع تلك الزيارات من نذر النذور أو ما سماه أهل إفريقية بـ "وعدات الناس" [٦٤٧]، التي كانت تشتمل على الأموال[٦٤٨]، والزيت [٦٤٩] وغيره من الأغراضالكثيرة التي كان يُنفق منها على إنارة موضع القبر وإصلاحه، وإعاشة القيِّم على القبر هو وأسرته، ومن تلك القبور التي كان يعدها الناس كثيرًا بنذورهم قبر أبي لبابة بقابس [٦٥٠]، وقبر أبي عمران الفاسي بالقيروان [٦٥١].

لجأ الناس كذلك في ظل قصور الرعاية الصحية، وقلة الوعي الصحي، إلى بدائل استشفائية، كانت جزءًا لا يتجزأ من المعتقدات الغيبية، التي وضحت تجلياتها في سلوكيات أفراد المجتمع سواء في **التداوي من المرض أو التحرز منه**، فكان الدعاء عند قبور الأولياء والصالحين، وإجابته أحد أهم كراماتهم وبراهينهم التي امتدت على مدار الفترة المدروسة وما تلاها من قرون، فقد شفي رجل من العمى ببركة دعائه عند قبر أبي إسحاق السبائي (ت٣٥٦هـ/٩٦٧م) [٦٥٢]، وشفي آخر من بعض أمراض الذكورة ببركة دعائه عند قبر أبي محمد بن أبي زيد (ت٣٦٨/٩٩٦م) [٦٥٣]. وهو ما ينطبق على من يريد التحرز من المرض، فقد أخبر ابن ناجي أنه عندما ولي قضاء قابس وقبل خروجه إليها، زار قبر الفقيه اللخمي (ت ٤٧٨هـ/

(٦٤٦) الحميري، مصدر سابق، ص١٤٤.
(٦٤٧) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص١٢.
(٦٤٨) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ١٣، ص١٩٣.
(٦٤٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٤.
(٦٥٠) المصدر نفسه، ج١، ص١٢.
(٦٥١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٤.
(٦٥٢) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٦٦-٦٧.
(٦٥٣) المصدر نفسه، ج٣، ص١٢٠.

١٠٨٥م) داعيًا متضرعًا متحرزًا مما قد يصيبه من المرض بسكناه لتلك المدينة الشهيرة برداءة هوائها واعتلال كل من يحل بها؛ فأجاب الله دعاءه وسلم من مرضها رغم أنه أقام بها سبعة أشهر، ولم لا وقبر اللخمي "مزار يعرفه الخاصة والعامة ولهم فيه اعتقاد تام" (٦٥٤).

يندرج كذلك ضمن الوسائل العلاجية الكرامية المتعلقة بقبور الصالحين **الاستشفاء بتراب تلك القبور** وحمله للمرضى في أي مكان (٦٥٥)، ورغم النهي الفقهي عن ذلك السلوك ولفت انتباه الناس إلى أعمال الصالحين بدلًا من جنائزهم وقبورهم، (٦٥٦)، إلا أن البعض أجازه إن كان التبرك بالعلماء والصالحين والشهداء، استنادا إلى حمل الناس منذ القدم تراب قبر سيدنا حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ دون إنكار من أهل العلم بالمدينة (٦٥٧)؛ لذا ظلت العادة جارية، وظل الاعتقاد فيها جازمًا، ومن دلائل ذلك استمرار اعتقاد الناس في تراب مقبرة مغمداس، التي قتل عندها إمام الأباضية أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري هو وأتباعه عام ١٤٤هـ/٧٦١م على يد القائد العباسي محمد بن الأشعث، كما قتل عندها أبو حاتم الملزوزي وأصحابه من الأباضية على يد والي إفريقية يزيد بن حاتم المهلبي عام ١٥٥هـ/٧٧١م، لذا صار لذلك المكان قدسية عند الأباضية؛ حتى يقال أن تراب المقبرة أحمر من أثر دم القتلى و"لم يغيره الزمان يتبرك به الناس ويحملونه للمرضى وهذا في مثلهم ليس بغريب" (٦٥٨). وفي السياق ذاته اعتقد العوام أن عند قبر أبي سعيد بن أخي هشام الربعي الفقيه

(٦٥٤) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩٩.

(٦٥٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٢١٢.

(٦٥٦) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص ص١٧٥، ٥٠٨؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٠.

(٦٥٧) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٠.

(٦٥٨) الشماخي، مصدر سابق، ص٤٠-٤٢.

(ت٣٧٣هـ/٩٨٣م)عدة حُفَر يتجمع فيها ماء المطر يُستشفى به من وجع العين [٦٥٩]. وهو ما ينطبق على تراب قبر سليمان العزابي (ط١٢، ٥٥٠-٦٠٠ه) الذي كان يُستشفى به من الأمراض المزمنة والمعضلة، وقد جربه أحد الأباضية فدفن فيه ثلاث بيضات ودعا الله أن يكون فيهن شفاء أحد المرضى الذي استعصى علاجه، فأجيب دعاؤه وبرئ المريض [٦٦٠]. ولم يكتف الناس بذلك بل وصل اعتقادهم إلى تراب حجر شاهد القبر، فقد تواتر أن الناس كانوا ينقبون شاهد قبر شقران المتعبد (ت١٨٦هـ/٨٠٢م) ويأخذون ترابه ويخلطونه مع الكحل ويرون بركته [٦٦١].

لجا الناس كذلك إلى قبور الصالحين لدفع بعض **الكوارث الطبيعية والجوائح كالأوبئة والجراد والجفاف** وغيرها من المعضلات التي عجزوا عن حلها، فقد أشارت الروايات الأباضية أن الوباء وقع بأجلو في سنة من السنين وتفاقم؛ فلم يجدوا بدًا من اللجوء إلى محراب مقبرة أوجلو المعروفة بالبركة وإجابة الدعاء، لما دفن فيها من الصالحين، فقرأوا القرآن وتطوعوا بالمعروف، ودعوا الله أن يرفع عنهم؛ فأجيبت دعوتهم [٦٦٢]. وهو المسلك ذاته الذي لجأوا إليه عندما اجتاحهم الجراد وضرهم ضررًا عظيمًا، فقد اجتمعوا وصاموا الأربعاء والخميس والجمعة، وفي عصر الجمعة خرجوا للمقبرة ودعوا الله أن يرفعه عنهم، فلما أصبحوا لم يجدوا له أثرًا [٦٦٣].

دأب أهل إفريقية كذلك على الاستسقاء أوقات القحط والجفاف بقبور الصالحين، ففي قحط ٤٠٩هـ/١٠١٨م أو ٤١٣هـ/١٠٢٢م ذهب رجل صالح

(٦٥٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣ص١٠٤.
(٦٦٠) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٥٢١.
(٦٦١) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٧.
(٦٦٢) الدرجيني، مصدر سابق، ج٢، ص٤٤٠؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٤٠٤.
(٦٦٣) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٦٠٢.

إلى قبر أبي الحسن القابسي "وتوسل إلى الله به فسقي الناس مطرًا وابلًا"، وهكذا أكد الدباغ أنه ما من أحد تنزل به مهمة أو ملمة أو فاقة في معيشة، فيتوضأ ويأتي قبره ويصلي ركعتين ويتوسل إلى الله به إلا ويخرج من عسره "هذا مجرب صحيح" (٦٦٤)، ومثله قبر عيسى بن مسكين بصفاقس الذي "لم يزل أهل صفاقس عند القحط يذهبون لضريحه يستسقون به فيسقيهم الله" (٦٦٥).

تعددت حوائج الناس، وكان الملجأ الموثوق هو الأولياء والصلحاء سواء كانوا أحياءً أو أموات؛ لذا اعتاد التجار والمسافرون على حمل شيء من تراب قبر محرز بن خلف (ت٤١٣هـ/١٠٢٢م)، فإذا ركبوا البحر وهاجت أمواجه وعصفت الريح ألقوا من ذلك التراب في البحر؛ فتسكن الريح ويسهل السفر "وهذا معلوم في أرض المغرب" (٦٦٦)، وهو ما تناقلت أخباره إلى بلاد المشرق، حيث أكد ياقوت الحموي أن "قبر المؤدب محرز، يقسم به أهل المراكب إذا جاش عليهم البحر. يحملون من تراب قبره معهم وينذرون له" (٦٦٧). كذلك من كان في سفر وخاف من خطر الأعراب؛ يَعِد قبر الشيخ أبي عمران الفاسي بصاع من زيت أو أقل أو أكثر إن سلمه الله، وكل من نزلت به نازلة من سرقة أو غيره ما عليه إلا أن يذهب إلى قبر الشيخ ويدعو عنده (٦٦٨). وحتى الخلافات الزوجية لم يجد البعض حلًا لها إلا باللجوء إلى قبور بعينها معروفة بإجابة الدعاء (٦٦٩).

---

(٦٦٤) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٣.

(٦٦٥) مقديش، مصدر سابق، ج٢، ص٢٤٦.

(٦٦٦) أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ٥، ص١٦٠؛ أبو حامد الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق، إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٨٢، ص١٥٨.

(٦٦٧) **معجم البلدان**، ج٢، ٦٢؛ أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ملحق ٤، ص١٥٩.

(٦٦٨) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٤.

(٦٦٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢.

وفضلًا عن ذلك عمدت بعض النسوة إلى التماس بركات الأولياء لتحقيق بعض الأغراض والآمال بعيدة المنال، ومن ذلك أن امرأة غاب عنها ولدها مدة خمسة أعوام دون أن يزرها، فلما اشتد شوقها إليه ذهبت إلى قبر الشيخ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ/٩٩٦م) ودعت بحرمته أن يقلب قلب ولدها ليعود إليها فكان لها ما أرادت [٦٧٠]. كان من المعهود أيضا أن يزر البعض قبورا بعينها بغرض الدعاء والتبرك بها قبل سفرهم وممارستهم لمهام أسندت إليهم ـ استمر ذلك لفترة متأخرة ـ وهو ما يدل على كمال الاعتقاد في تلك القبور وأصحابها وخصوصها بعلو مكانة دون غيرها كقبر رباح بن يزيد المتعبد (ت١٧٢هـ/٧٨٨م) [٦٧١].

إذا كان الأولياء والصالحون ـ ممن أسلفنا ذكرهم ـ إما من العُبَّاد أو العلماء والفقهاء والقضاة ذوي المكانة المعتبرة في المجتمع؛ ومقصد العامة والخاصة في حياتهم وبعد مماتهم، فإن آخرين ـ وبناءً على ذهنيات معينة ـ قد حازوا نفس المكانة الكرامية عند الجمهور، فما لبثوا يتعهدون قبورهم بالزيارة ويتبركون بهم ويدعون عندهم رجاء تحقيق حوائجهم، فثمة إشارة إلى عدة قبور، يقول العامة أنها قبور حناطين كانوا صلحاء، فقحط الناس واستسقوا أياما فلم يجابوا، فخرج أولئك الحناطون وبأيديهم الويبات والصيعان، يطلبون الله عز وجل بالدعاء، فكان من دعائهم: "اللّٰهم إن كنت تعلم أنا لا نكتال إلا حقًا ولا نغش في بيع طعامنا فأمطرنا فأمطروا من الفور في تلك الحال بمطر وابل"؛ فخصصوا حوطة بجانب قبر أبي حفص عمر بن محمد العطار (ت٤٢٧هـ أو ٤٢٨هـ) وجعلوها لدفن أولئك الحناطين ووضعوا عليها شواهد ظلت موجودة إلى عهد ابن ناجي (ت٨٣٩هـ/١٤٣٦م) [٦٧٢].

---

(٦٧٠) الدباغ، مصدر سابق، ج٣ ص١١٩.

(٦٧١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٣.

(٦٧٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٥.

وفي السياق ذاته يبرز الاعتقاد المغلف بغلاف مذهبي في قبورٍ عدة هي في الأساس لأشخاص عارضوا الشيعة، أو حرضوا عليهم أو اشتركوا ضدهم في بعض المعارك؛ فكان مصيرهم القتل على أيدي الشيعة وأعوانهم؛ لذا صار هؤلاء في مقام الشهداء عند المالكية، ومن ثم صار التبرك بقبورهم عادة متجذرة في الوسط المالكي، نموذج ذلك قبور الشهداء بقبة الرمل بسوسة ومنهم أبي جعفر القمودي (٣٢٤هـ/٩٣٦م)، فمما هو متواتر عن محمد بن يحيي الصيقل ـ أحد الصالحين ـ أنه كان على خلاف شديد مع زوجته أوشك منه على طلاقها، فخرج عنها شديد الهم غاضبًا إلى قبور الشهداء ـ المالكية المقتولين على أيدي الشيعة أثناء حركة أبي يزيد النكاري ـ فوقف عند قبر أبي جعفر القمودي ودعا الله وتوسل أن يصلح عليه زوجته أو يخلصه منها، فلما رجع منزله، وجدها قد أحسنت لقاءه وبالغت في ذلك وعاتبته على شكوه إياها للقمودي [٦٧٣]. وكذلك قبر عروس المؤذن (ت٣٠٧هـ/٩١٩م) بمسجد عياش الفقيه صاحب سحنون، الذي قتله بنو عبيد "بسبب تركه حي على خير العمل" في الأذان وهي أحد الشعارات الشيعية المهمة؛ لذا صار "قبره مزار. . . فكيف لا وقد مات شهيدًا" [٦٧٤]. ومثله قبر الفقيه المالكي علي حسن بن خلدون البلوي (ت٤٠٧هـ/١٠١٦م) الذي قتله باديس بن المنصور (٤٠٥-٤٣٩هـ/١٠١٥-١٠٤٨م) ـ عامل الفاطميين على إفريقية ـ كرد فعل على تحريضه للسنة على قتل الشيعة؛ ومن ثم صار قبره مزارًا مشهورًا بباب سلم بالقيروان [٦٧٥].

(٦٧٣) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢.

(٦٧٤) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٨٢-١٨٣؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص ص٥، ٧٧.

(٦٧٥) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٥.

تاسعًا: القبر والحياة الدينية والعلمية:

ارتبط القبر كذلك ببعض جوانب الحياة الدينية لأفراد مجتمع إفريقية، فقد كان لكراهة إقامة صلاة الجنائز في المساجد خشية انفجار الميت وتلويثها؛ دافعًا لإجازة معظم المالكية **الصلاة عليها بالمقابر** [٦٧٦]؛ ومن ثم بُنيت المساجد أو المصليات في المقابر لغرض الصلاة على الجنائز، ولتحمي الناس من البرد والحر؛ لذا فقد انتفت عنها الكراهة [٦٧٧]؛ وذلك بكل مقبرة عامة تقريبًا، فقد كان بمقبرة باب أسلم بالقيروان مصلى للجنائز [٦٧٨]، ومثله بباب تونس بالقرب من آبار حديج [٦٧٩]، وآخر عند باب أصرم [٦٨٠]، كما كان لمقابر الأباضية مصليات للجنائز، ومنها مصلى مقبرة أوجلو [٦٨١]، وهكذا في كل نواحي إفريقية.

ومن معاينة بعض النصوص تبين أن الصلاة بوجه عام كانت مباحة بالمقابر، فقد أجاز ابن القاسم (ت١٩١هـ/٨٠٦م) الصلاة بالمقابر وإن كان القبر بين يدي المصلي [٦٨٢]، ولكن يبدو أن المغاربة كانوا أكثر تحريًا، فقد اتخذوا محاريب عن يمين قبور العلماء والصالحين بحيث تكون خارجة عنها حتى لا يعبد ذلك القبر أو صاحبه [٦٨٣]، وهو ما كان معمولا به في قبر البهلول بن راشد العابد (ت١٨٣هـ/٧٩٩م)، الذي اعتاد الناس زيارته والصلاة عند قبره [٦٨٤]، وكذلك عند قبر أبي الحسن القابسي (٤٠٣هـ/١٠١٣م) [٦٨٥].

(٦٧٦) ابن أبي زيد القيرواني، مصدر سابق، ج١، ص٦٢٢-٦٢٣.
(٦٧٧) البرزلي، مصدر سابق، ج١، ص٥٠٣.
(٦٧٨) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٠.
(٦٧٩) المصدر نفسه، ج١، ص٩٣.
(٦٨٠) الهادي روجيه إدريس، مرجع سابق، ج٢، ص١٢.
(٦٨١) الوسياني، مصدر سابق، ج٢، ص٥٧٩؛ الشماخي، مصدر سابق، ص٢٢١.
(٦٨٢) اللخمي، **التبصرة**، ج١، ص٣٤٥.
(٦٨٣) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٤٣.
(٦٨٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧١.
(٦٨٥) المصدر نفسه، ج٣، ص١٤٣.

أما ما يتعلق بالمقابر المنبوشة، فقد تعرض الفقهاء لمسألة حكم الصلاة بها، والتي اختلفوا فيها بين قائل بالجواز شريطة وجود حائل كالحصير ونحوه، استنادًا إلى أن الأصل فيها هو الطهارة، وبين قائل بالكراهة استنادًا إلى أن الميت ينجس بالموت (٦٨٦).

شكلت المقابر بجلالها **مكانًا محببًا لخلوة بعض الصلحاء** والانفراد والتعبد والاتعاظ، وهو ما كان مسلك الزاهد محمود القطان (أخو ربيع القطان، ت٣٣٤هـ/٩٤٦م) الذي كان يحب المشي بين المقابر، والمواضع الخالية من الناس، والصلاة بها، وحضور الجنائز والصلاة عليها، ومن دعائه: "اللّٰهم آنسني بك في الخلوة واحفظ علي أسباب العزلة، وسلمني في المجالسة والمخالطة" (٦٨٧). وبالمثل دأب صلحاء الأباضية على التعبد في مشاهد جبل نفوسة، التي لها عندهم مكانة جليلة؛ لأنها كانت مواقع المعارك التي تمت بينهم وبين جيوش المشرق أو بينهم وبين المنشقين عليهم من نفس المذهب، وغالبا ما شهدت تلك المواقع دفن كثير من قادة الأباضية ومشايخهم وعلمائهم؛ لذا فبها قبورهم المخصوصة بالبركة عندهم، وممن كان حريصًا على التعبد بها أبو المنيب مامد بن يانس (ط٥، ٢٠٠-٢٥٠ه) الذي قسم وقته على النحو التالي: ". . . سنة يتعلم عند إسماعيل بن درار الغدامسي وسنة عند الإمام عبد الوهاب. . . بتهرت في الجهاد وسنة يمضي إلى الحج وسنة يتعبد في المشاهد في هذا الجبل" وهكذا (٦٨٨).

أما ما يتعلق **بعلاقة المقابر بالحركة العلمية**، فعلى الرغم من أن المقابر كانت في نظر كثير من العلماء والشعراء سببًا في تراجع الحركة العلمية؛ لما

---

(٦٨٦) المازري، **شرح التلقين**، ج١، ص٨٢٤.

(٦٨٧) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٤٧-٣٤٨.

(٦٨٨) البغطوري، مصدر سابق، ج٢، ص٩١.

حوته من رفات رجال العلم والمعرفة على اختلاف مشاربهم [٦٨٩]، إلا أننا نجد من يحرص على الوصية بدفن إجازته العلمية معه في قبره [٦٩٠]، وآخر تمنى لو استطاع أن يدفن معه في قبره كتبه التي ألفها [٦٩١]، لتكون لهم حجة وشفيعًا من عذاب القبر كما أسلفنا سابقًا.

تفيد إشارة بالغة الدلالة عن أن المقابر قد أسهمت في استكمال مسيرة نشر العلم والمعرفة، لاسيما في بعض فترات الاضطراب السياسي، المغلفة بالصراعات المذهبية، وما تبعها من جهود سلطوية لحظر الرأي وتكميم الأفواه المعارِضة، أيا كان شكل المعارضة، وهو ما ينطبق على فترة الدراسة مع اختلاف السلطات المتعاقبة في المنحى والمذهب والتوجهات [٦٩٢]، وإن كانت إشارتنا تتعلق تحديدًا بالمرحلة المغربية من تاريخ الدولة الفاطمية[٦٩٣]،

---

(٦٨٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٠.

(٦٩٠) الونشريسي، مصدر سابق، ج١، ص٣١٩.

(٦٩١) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢.

(٦٩٢) فعلى سبيل المثال لا الحصر شهد العصر الأغلبي حالات كثيرة للإقصاء إما بسبب المذهب أو بسبب مسألة خلق القرآن، فعلى يد أبي جعفر أحمد الأغلبي ـ ولي عهد أخيه محمد ـ حُددت إقامة الفقيه سحنون (ت٢٤٠هـ) في داره ومُنع من الفتوى والإقراء بسبب موقفه من القول بخلق القرآن.
انظر، أبو العرب تميم، **كتاب المحن**، ط٣، تحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٦م، ص٣٥٣-٣٥٤. كما عُزل القاضي عبد الله بن طالب وسُجن على يد إبراهيم الثاني الأغلبي؛ لاعتراضه على مسلك الأمير تجاه إحدى قرى تونس، التي أَبَى أهلها من بيعها له فأباحها لجنده السودان، انظر، أبو العرب تميم، مصدر = سابق، ص٣٦٠. وفي العصر الفاطمي سجن أبوبكر بن اللباد الفقيه (ت٣٣٣هـ) وبعدها منع من الفتوى والإسماع واجتماع الطلبة حتى توفي.
نظر، الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٢٥. كما حبس أحمد بن نصر الفقيه (ت٣١٧هـ) وحددت إقامته وغيره كثيرون. انظر، أبو العرب تميم، **المحن**، ص٣٦٣. وقام المعز بن باديس بنفي الفقيه الواعظ أبي عبد الله بن عبد الصمد عام ٤٤٢هـ، ثم دس عليه من قتله في الطريق، وذلك بسبب حدة لسانه واجتماع الناس عليه وإتباعهم له وحبهم إياه. انظر، ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٩؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٩١-١٩٢.

(٦٩٣) حكم الفاطميون بلاد المغرب بعد إسقاطهم لدولة الأغالبة عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م وحتى رحيلهم لمصر ٣٦٢هـ/٩٧٢م واتخاذها مقرا لخلافتهم في عهد المعز لدين الله الفاطمي.

إلا أننا لا نستبعد قيام آخرين في الفترة نفسها وكذا في الفترة السابقة واللاحقة بنفس مسلك أبي عبد الله محمد بن الفتح المرجي المؤدب (ت٣٣٤هـ/٩٤٦م)، الذي لجأ إلى الاستتار في المقابر بعيدًا عن أعين السلطة ومراقبتها، والاجتماع بطلبته للقراءة والسماع، في ظل قيام الفاطميينباضطهاد أصحاب المذاهب المخالفة لهم؛ عبر سجنهم في دورهم وتحديد إقامتهم(٦٩٤)، ومنعهم من إلقاء دروسهم أو من ممارسة الإفتاء، أو حتى من لقاء الناس(٦٩٥)، فضلا عن مصادرة كتب المالكية والتخلص منها (٦٩٦)، ناهيك عن حالات التعذيب والقتل بسب إبداء آرائهم المجابهة للشيعة ومبادئهم؛(٦٩٧) لذا لجأ هؤلاء إلى التماس تلك السبل غير الاعتيادية لمواصلة نشر علمهم، رغم القبضة الأمنية الشديدة ـ حيث ثقفت البلاد "تثقيفًا شديدًا بالعسس والحرس والرصد الشديد" ـ (٦٩٨) متحدين بذلك منظومة التجسس التي تبناها الفاطميون لاسيما ضد المالكية (٦٩٩).

---

(٦٩٤) أبو العرب تميم، **كتاب المحن**، ص٣٦٣؛ المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٨٧، ٣١٣؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٣٨-٣٩. لمزيد من التفاصيل حول حظر الرأي في العصر الفاطمي، انظر، ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٨٧؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٦٤.

(٦٩٥) أبو العرب تميم، **كتاب المحن**، ص٣٦٣؛ المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٧٢؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٤٣؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٦؛ الداعي إدريس، مصدر سابق، ص١٥٨؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص ص١٥٩، ١٨٨.

(٦٩٦) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ص ٢٥٩، ٤٢٣.

(٦٩٧) القاضي النعمان، مصدر سابق، ص٤٤٦؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨؛ المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص ص٤٨، ٢٥٤، ٣١٤، ٤٠٥؛ ابن حماد، مصدر سابق، ص٧٤؛ الدرجيني، مصدر سابق، ص١٠٢؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص ص١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٨١، ١٨٧، ٢٨٤؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص٣٤.

(٦٩٨) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨٧.

(٦٩٩) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٣.

وإذا كان المالكية قد اضطروا تحت وطأة الاضطهاد الفاطمي إلى اللجوء للمقابر للتدريس والاجتماع بطلبة العلم، فإن الأباضية لجأوا مختارين إلى المسلك ذاته، حيث كان رجال الدعوة منهم حريصين على تلقي العلم ونشره لاسيما بمشاهد جبل نفوسة المخصوصة بالبركة، لما حوته من مقابر قادتهم ومشايخهم وعلمائهم، وقد أكدت الرواية الأباضية أن ثلاث عشرة جماعة منهم اجتمعوا بأزوادهم من الطعام، يتنقلون في المشاهد دون العودة إلى منازلهم حرصا منهم على العلم حتى "نشأ فيهم العلم وأصبحوا لا يحتاج منهم منزل إلى منزل في مسألة إلا من طريق الأدب والورع" (٧٠٠)، وهو ما يؤكد على اتخاذ المقابر في أوقات معينة مراكز لتلقي العلم ونشره.

عاشرًا: السلطة والمقابر:

يمكن القول أن ثمة محددات لعبت دورًا مهمًا في صياغة علاقة السلطة بالمقابر والمقبورين، منها: كونها سلطة لها حق إصدار الأوامر والمراسيم المنظمة، كما أن لها حق استغلال ما تراه مناسبًا للصالح العام، يضاف إلى ذلك مكانة المقبور في المجتمع، ومذهبه ومدى صدامه أو مواءمته للسلطة، فضلًا عن مدى اقترافه لبعض المخالفات والتجاوزات، وهو ما سيحدد قطعًا نوع عقوبته، ومكان تنفيذها وكذا طريقة دفنه.

تضمنت علاقة السلطة بالمقابر **إصدار المراسيم** المنظمة لما يُتبع من سلوكيات في الجنائز أو عند الدفن، فقد ورد ضمن جملة الأوامر التي وجهها المعز لدين الله الفاطمي عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م ألا " تصيح امرأة وراء جنازة، ولا يقرأ العميان على القبور إلا عند الدفن" (٧٠١)، ربما كانت محاولة لمنع اختلاط النساء بالرجال في المقابر للحد من أشكال الفساد والمراودة، لأنه

(٧٠٠) البغطوري، مصدر سابق، ج١، ص٣١.

(٧٠١) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٢٣.

كان من الشائع اتخاذ القراء من العميان لقراءة القرآن على مقابر النساء كما سبقت الإشارة.

وفي سياق آخر جرى استغلال السلطة لأرض المقابر التي عفت في بعض **المصالح العامة** كتوسعة المساجد، وهي من الأولويات المهمة؛ لمواجهة الأعداد المتزايدة من المصلين وضيق المساجد، وهو ما عده المالكية من المنافع المهمة التي لم يروا فيها بأسًا؛ انطلاقًا من كون المقابر والمساجد حبس للمسلمين "فيستعان ببعض ذلك في بعض" (٧٠٢)، وذلك في المقابر الداثرة دون الجديدة خشية نبش العظام (٧٠٣)، وقد أفتى أبو الحسن القابسي في تلك المسألة بأنه إن اضطُر إلى مقبرة لتوسعة مسجد جامع ضاق بأهله، تُسوى بالأرض وتُزال عنها علامات القبور، وتُحكم تغطيتها ويُوسع بها المسجد ويصلى عليها (٧٠٤). كذلك أُبيح بناء مساجد كاملة في أرض المقابر التي عفت ودرست وأداء الصلاة فيها (٧٠٥)، على اعتبار أن ذلك "ليس. . . من النهي الذي جاء في اتخاذ القبور مساجد" لأن ذلك يتم لضرورة وليس لتعظيم القبر بالصلاة إليه (٧٠٦).

وفي إطار رغبة السلطة في الانتفاع بحجارة ورخام المقابر، كلف الأمير إبراهيم الثاني الأغلبي (٢٦١- ٢٨٩هـ/٨٧٥-٩٠٢م) خدمه السودان بهدم القبور بسوسة لينتفع بها في تثقيل المراكب التي أمر بصناعتها وهو بصدد

---

(٧٠٢) ابن أبي زيد، **النوادر والزيادات**، ج١٢، ص٩٠؛ البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٩٤؛ الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٢٤٤، ٤٢٥.

(٧٠٣) الونشريسي، مصدر سابق، ج٧، ص٢٠٥.

(٧٠٤) القاضي عياض وولده، نوازل الأحكام، ص٣١٦.

(٧٠٥) ابن أبي زيد، **النوادر والزيادات**، ج١٢، ص٩٠؛ القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣١٦؛ البرزلي، مصدر سابق، ج٥، ص٣٩٤.

(٧٠٦) القاضي عياض وولده، مصدر سابق، ص٣١٦.

الاستعداد للخروج لصقلية؛ حتى تستطيع الصمود أمام أمواج البحر [٧٠٧]، ويبدو أن الخصاص المالي الذي أصاب دولة الأغالبة في مراحل معينة، لاسيما في نهايتها وما كانت تمر به من أزمات اقتصادية وسياسية وعسكرية؛ كان سببًا في اجترائها على استغلال كل ما لديها حتى لو كان حجارة المقابر؛ لمواجهة احتياجاتها. وقد وردت إشارة مقتضبة حول قيام بني الأغلب كذلك بهدم ما كان على قبري يزيد بن حاتم وأخيه روح بن حاتم من البناء [٧٠٨]، دون توضيح الأسباب التي دعت إلى ذلك، أكان ذلك لأجل الانتفاع بحجارة ذلك البناء - لاسيما وهما كانا من كبار ولاة العباسيين على إفريقية، ولا يستبعد أن بناء قبريهما وما استخدم فيه من رخام وتزيين يضاهي مكانتهما الرفيعة-أم أن هناك أسبابًا أخرى؟

يندرج ضمن علاقة السلطة بالمقابر ـ كمرفق مهم من مرافق المدن ـ تنظيم الحسبة عليها، والحقيقة أننا نفتقد لسياسات حسبية معينة تجاه المقابر فيما يتعلق بإفريقية ـ كتفقد المحتسبين للمآتم والمقابر- على عكس ما هو متعارف عليه في المشرق [٧٠٩] أو الأندلس [٧١٠]، إلا أنه من خلال معاينة نصوص الفترة تبين ما كان للمؤسسة الفقهية من دور كبير في تنظيم ما يتعلق

---

(٧٠٧) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٩٤؛ القاضي عياض، مصدر سابق ج١، ص٥٠٨. والحقيقة أن مسألة هدم القبور للصالح العام أو نقلها قد جرى حتى في فترات لاحقة، فبعد دخول إفريقية في طاعة الموحدين في القرن السادس الهجري/١٢م، قام واليهم ببناء قصبة بتونس فجاءت مقبرة باب المنارة أمام باب القصبة، فأمر الوالي بحفر تلك القبور ونقلها "فمن كان له أهل نقلوه ومن لا أهل له ولم يعلم له قرابة نقله الخدام". انظر، أبو الطاهر الفارسي، مصدر سابق، ص١٦١.

(٧٠٨) الرقيق القيرواني، مصدر سابق، ص١٣٦.

(٧٠٩) الشيزري، **نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت، ص١١٠؛ ابن بسام، **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، ط١، تحقيق، محمد حسن إسماعيل و أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣ م، ص ٣٨٣.

(٧١٠) السقطي، مصدر سابق، ص٦٨؛ ابن عبدون، مصدر سابق، ص٢٦-٢٨.

بالجنائز والدفن، من خلال الفتاوى التي صدرت مع كل نازلة تتعلق بذلك الباب؛ ومن ثم فقد صنف فقهاء المغرب أبوابًا كاملة ضمن مؤلفاتهم الفقهية تتعلق فقط بالجنائز وطرق الدفن وشعائره وما يتبعه، وهو ما أفادت الدراسة منه في معالجة مباحثها السابقة؛ وفي رأي الباحثة فقد حلتْ فتاوى النوازل محل التنبيهات والنصوص الحسبية، وقامت بدور كبير في ضبط شعائر الدفن وحفر القبور ووضع أسس للمهن المتعلقة بالقبور، وتنظيم علاقة الأحياء بقبور ذويهم، وزيارتهم، ومنع التعدي على المقابر، وإن لم تكن بعض تلك الفتاوى رادعة في بعض الأحيان على نحو ما تم عرضه آنفًا.

شكلتْ **مكانة المقبور في المجتمع** محورًا مهمًا في سلوك السلطة تجاه جنازته وقبره، حيث كان من المتعارف عليه أن يحضر بعض الأمراء وكبار رجال الدولة دفن ذويهم [٧١١]، وكذا دفن غيرهم ممن يعملون في الجهاز الإداري والعسكري للدولة، فضلًا عن حضورهم لدفن رجال من العباد والزهاد والفقهاء احترامًا لشخوصهم، وربما محاولة منهم لإرضاء العامة، وقد تمت الإشارة آنفًا إلى تبرع السلطة في كثير من الأحيانبجهاز بعض المتوفين منهم وإرساله على الملأ [٧١٢]ربما للسبب نفسه، فقد حضر الوالي العباسي يزيد بن حاتم دفن القاضي عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (ت١٦١هـ/٧٧٨م) [٧١٣]، كما حضر الوالي نفسه دفن رباح بن يزيد العابد (ت١٧٢هـ/٧٨٨م) [٧١٤]، ونظرا لمكانة القاضي عبد الله بن غانم (ت١٩٠هـ/٨٠٦م) المعتبرة لدى الخليفة العباسي هارون الرشيد ببغداد؛ فقد

---

(٧١١) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٤٩٦-٤٩٧؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص٢٧٢.

(٧١٢) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٤٠٠، ج٢، ص٣٦٢؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٣٦٢، ج٢، ص٥٦، ج٢، ص٧٥؛ ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٠٦.

(٧١٣) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٦.

(٧١٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦١.

كان إبراهيم الأول الأغلبي (١٨٤-١٩٦هـ/٨٠٠-٨١٢م) كثير الإكرام والتعظيم وأشد الناس مداراة له في حياته، ولما مات بكى عليه هو وخاله حتى فرغوا من دفنه [٧١٥]. ولما مات الإمام سحنون "صلى عليه الأمير محمد بن الأغلب" [٧١٦]. وبالمثل حضر إبراهيم الأغلبي الثاني (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٥- ٩٠٢م) جنازة الفقيه محمد بن سحنون (ت٢٥٦هـ/٨٧٠م) وصلى عليه، وضرب على قبره قبة [٧١٧]، ولما توفي الصالح الأباضيأبو مسور بن وجين اليراسني (ط٧، ٣٠٠-٣٥٠ه) وقع الخطببأهل جزيرة جربة؛ لمكانه فيهم حتى أن عاملا من عمال السلطان، سأل الناس أن يدلوه على قبره، فزاره ليتبرك به ويدعو له ويؤبنه، ويذكر محاسنه ومآثره [٧١٨].

ولما توفي الزاهد القيرواني أبي بكر بن يوسف الخزاعي (ق٤هـ/١٠م) خرج عامل القيروان إلى قبره بالمشاعل ليضيء المكان لتسهيل عملية الدفن لأنه دفن ليلًا [٧١٩]. ونال قبر المهدي الفاطمي إجلالًا وتعظيمًا من قِبل ابنه القائم، الذي حزن لموت أبيه حزنًا شديدًا فأمر بالبكاء عليه في أنحاء إفريقية، ولم يركب بالمهدية دابة حتى توفي "حزنا وَبرا وتكرمة لتربة دفن فِيهَا" والده [٧٢٠]. واعترافًا بفضل الداعي أبي جعفر الجزري ـ الذي انتدبه المهدي الفاطمي للسير بأهله من سلمية إلى المغرب ـ فقد صلى عليه القائم الفاطمي " ووقف على قبره حتى واروه فيه وترحم عليه" [٧٢١]. وفي إطار تلك العلاقة

---

(٧١٥) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص ص٢٢٦، ٢٢٩.

(٧١٦) ابن فرحون، مصدر سابق، ج٢، ص ٣٩.

(٧١٧) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص ٤٣٢.

(٧١٨) الدرجيني، مصدر سابق، ج١، ص ١٦٦.

(٧١٩) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٢٣.

(٧٢٠) ابن حماد، مصدر سابق، ص٥٠.

(٧٢١) الداعيإدريس، مصدر سابق، ص١٩٢.

أخذتْ بعض السلطات على عاتقها رعاية وصيانة بعض أضرحة الأولياء والصالحين، ونتوفر بخصوص ذلك على رواية دالة تتعلق بقبر الصحابي الجليل أبي زمعة البلوي، الذي تم تجديده عندما تم التعرف عليه خلال القرن الرابع الهجري، حيث " بنيت عليه قبة مثمنة الوضع وجعل له حرم يدور بها من جهاتها الأربع مصان بالبناء والغلق؛ وجعل في تلك القبة. . . لوحٌ من رخام رسم فيه اسمه وحقق فيه أنه موضع قبره" (٧٢٢).

وفي المقابل نلمح وجهًا مغايرًا لعلاقة السلطة بالمقابر والمقبورين، فعلى الرغم من أن موت أحد المخالفين كان يمثل بشرى عظيمة للسلطة، كما حدث عند موت الفقيه المالكي سعيد الحداد (ت٣٠٢هـ/٩١٥م) الشهير بمجابهته ومناظراته مع الشيعة؛ حيث "خرج البريد سحرًا يبشر أمير بني عبيد" بموته (٧٢٣)، إلا أن **هاجس الخوف سيطر على السلطة** بسبب ازدحام الناس على جنائز مخالفيها من الصالحين والعُبَّاد والفقهاء، لاسيما وقد شهدت تلك الجنائز بعض الشعارات السياسية والمذهبية في بعض الأحيان لدرجة تصل إلى حد اعتبارها مظاهرات سياسية، وهو ما يتضح خلال جنازة أبي بكر بن اللباد (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م) التي حضرها عدد كبير من الناس وهم يرددون "النبي وصاحباه"، وذلك عند توقع وصول أبي يزيد الخارجي إلى القيروان(٧٢٤) إبان حركته ضد الفاطميين الشيعة مع من انضم إليه من أقطاب المذهب المالكي.

ولا ريب أن تلك الجنائز وأشباهها كانت تقض مضاجع السلطة الحاكمة، مما يدفعها إلى **تضييق الخناق وفض تلك الجنائز بالقوة** والإرهاب في

(٧٢٢) الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٩٩-١٠٠.

(٧٢٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣١٥.

(٧٢٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ٢٦-٢٧.

بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال لا الحصر أنه لما حضر يزيد بن حاتم جنازة رباح بن يزيد العابد ورأى ازدحام الناس على نعشه "من صلاة الظهر إلى صلاة العصر"، أمر عسكره بحمله وإزالة الناس عنه والإسراع بدفنه [٧٢٥]، وهو ما ينطبق على إبراهيم الثاني الأغلبي، فرغم حرصه على حضور جنازة محمد بن سحنون، إلا أنه لما رأى الناس مقيمين على قبره شهورا كثيرة؛ هاله ذلك وأرسل إلى ابن عم محمد بن سحنون لتفريقهم [٧٢٦]. ولما توفي أحد صلحاء المالكية، وهو أحمد بن معتب بن الأزهر المعروف بشهيد القرآن (ت٢٧٧هـ/٨٩٠م) اجتمع الناس وباتوا على قبره بأعداد هائلة بصحبة عدد كبير من المشايخ والفقهاء؛ مما أرق إبراهيم الثاني الأغلبي، الذي بدأ يتوجس خيفة من تلك التجمعات، ونحا باللائمة على قاضيه الحنفي ابن عبدون (ت٢٩٧هـ/٩١٠م) لأنه كان يهون من أمر ابن معتب لدى الأمير، وذلك في إطار الصراع بين المالكية والأحناف، وإغراء حكام بني الأغلب بالمالكية، لاسيما وقد سبق للقاضي الحنفي ضرب رجلي ابن معتب "في الفلقة بالدرة حتى أدماها" [٧٢٧]. وفي العصر الفاطمي أرسل المعز لدين الله (٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٦م) رجاله لتبديد اجتماع الناس على جنازة وقبر الشيخ الفقيه أبي إسحاق السبائي [٧٢٨]؛ لما له من مكانة وثقل في الوسط السني [٧٢٩]. ولما كان أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الخولاني (ت ٤٣٢هـ/١٠٤١م أو ٤٣٥هـ/١٠٤٤م) من المنكرين على المعز بن باديس

(٧٢٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦١-٢٦٢.

(٧٢٦) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص ٤٣٢؛ الدباغ، مصدر سابق، ج١، ص٢٦١-٢٦٢.

(٧٢٧) الخشني، مصدر سابق، ص١٣٩؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص ٥٠٤-٥٠٥؛ الدباغ، مصدر سابق، ج٢، ص١٨٢-١٨٣.

(٧٢٨) القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص ٧٥.

(٧٢٩) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٦٩-٤٩٠؛ القاضي عياض، مصدر سابق، ج١، ص٦٧-٧٤.

إبقائه للشعائر الشيعية، ورموز التبعية للفاطميين، كالبنود والعملة وغيرها [٧٣٠]؛ فقد خشي الأمير جموع الناس التي شيعته، والتي كانت متشبثة به رافضة لدفنه حتى "كُسرت تحته نعوش كثيرة وقطع السلطان بعض الأيدي لعدم تسليمهم للنعش وعصيانهم لأمره"، ولم يكتف بذلك بل تعداه إلى منع تجمع الناس، التي خرجت لقبره لعدة ليال بالمشاعل والشموع [٧٣١]؛ ولا ريب أن كل تلك الإجراءات القمعية كانت خوفًا من ثورة الناس عليه، لاسيما وأن العامة كانت طوع أمر أبي بكر الخولاني أثناء حياته [٧٣٢].

وفي السياق ذاته سعتْ السلطة في بعض الأحيان إلى **القبض على بعض كبار الصلحاء والأولياء** أثناء حضورهم لبعض الجنازات؛ توجسًا من التفاف الناس حولهم واتباعهم لهم، وهو ما حدث عندما علم الناس بحضور الشيخ أبي إسحاق الجبنياني (ت٣٦٩هـ/٩٨٠م) لجنازة فاحتشد للصلاة خلفه كل من بالسوق، فضلًا عن كبراء الموضع؛ مما هال المعز لدين الله الفاطمي، ودفعه إلى إرسال رجاله للقبض عليه، كما وجه آخرين متخفين ليستطلعوا أخبار أصحابه وهل يطبقون الشعائر الشيعية أم لا، إلا أن رجاله خوفوه عاقبة أمره إن تعدى على أحد أولياء الله الذين تُستجاب دعواتهم؛ فأرسل برد عسكره [٧٣٣].

لجأتْ السلطة كذلك إلى إجراءات احترازية أخرى لتلافي تجمهر الناس، منها **تعمد دفن بعض الشخصيات ليلًا**، نموذج ذلك الفقيه المالكي أبي علي حسن بن خلدون البلوي (ت٤٠٧هـ/١٠١٦م) الذي قتله باديس بن

(٧٣٠) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٦٧.

(٧٣١) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٩.

(٧٣٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٦٨.

(٧٣٣) اللبيدي، مصدر سابق، ص٣٦-٣٧.

المنصور ـ عامل الفاطميين على إفريقية ـ بسبب تحريضه للسنة على قتل الشيعة[٧٣٤]، وقد ثار الناس أمام ذلك الإجراء، وعمدوا إلى نهب جميع ما في حوانيت المنصورية، وفي محاولة لاسترضائهم جاء العامل برجلين، وادعى أنهما من قاما بقتل الفقيه، وتلافيًا لتجمع الناس وما يمكن أن يتبعه من خروج على السلطة؛ فقد عمد العامل إلى دفن أبي علي بن خلدون ليلًا [٧٣٥].

أما **إهانة المدفون،** فهي غالبًا عقوبة تكميلية، تتبع المصادرة والتعذيب والقتل وربما التمثيل بالجثة؛ لذا فهي تشي ببعض الدلالات السياسية، وأهمها غضب السلطة وسخطها على المقبور، الذي تُنتهك حرمة جسده، فيما يعرف بـ"التوظيف السياسي للجسد" [٧٣٦]، ويُدفن غالبًا دون غسل أو صلاة أو تشييع أو حتى قبر معلوم، ومن شواهد ذلك قتل جيش زيادة الله الأول لأحد العلماء الراسخين المعروف بعباس بن الوليد الفارسي (ت٢١٨هـ/٨٣٣م) أثناء اقتحامه لتونس خلال ثورة منصور الطنبذي على زيادة الله [٧٣٧]، فعلى الرغم من أن الرجل لم يعارض السلطة الأغلبية بأي وجه، إلا أنه قتل على يد رجالها و"قطعت رأسه وطرحت جثته بخربة تونس" في إطار استباحة رجال الأغلبي لأهل تونس وعقابهم جماعيًا؛ لخضوعهم لمنصور الطنبذي [٧٣٨]. وبرز كذلك دور الصراع المذهبي وأثره في التنكيل بالخصوم وإهانة دفنهم خلال العصر الفاطمي، فبسبب جهود أبي جعفر بن

---

(٧٣٤) الدباغ، مصدر سابق، ج٣، ص١٥٥.

(٧٣٥) القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٠.

(٧٣٦) ميشيل فوكو، **المراقبة والمعاقبة ولادة السجن**، ترجمة، علي مقلد، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠م، ص٦٥.

(٧٣٧) لمزيد من التفاصيل عن ثورة الطنبذي وخطورتها على دولة الأغالبة انظر، حسن حسني عبد الوهاب، **ثورة الطنبذي، منعرج في تاريخ الأغالبة**، ضمن كتابه الورقات، ج ٣، ص٢٩٧ – ٢٨١.

(٧٣٨) المالكي، مصدر سابق، ج١، ص٢٥٠.

خيرون (ت٢٩٧هـ/٩١٠م) في الدفاع عن السنة ومواجهة الشيعة؛ سعى عليه محمد بن عمر المروزي قاضي عبيد الله المهدي ـ وكان شديدًا على أهل السنة ـ حتى أمر عبيد الله المهدي أحمد بن أبي خنزير عامل القيروان بقتله، فقتل على يد العبيد السودان وألقوه بعدها "في حفير" (٧٣٩).

وفي المقابل، لجأ المعارضون للسلطة مذهبيًا إلى تعمد إخفاء موضع دفن موتاهم خشية مما يمكن أن تقدم عليه السلطة من نبش وتمثيل بجثامينهم، وهو مسلك أحد أقارب الفقيه المالكي أبي الفضل المسي (ت٣٣٣هـ/٩٤٥م)، الذي قتل في إحدى المعارك بين السنة والخوارج بزعامة أبي يزيد النكاري من جهة والشيعة من جهة أخرى، فقام قريبه ورماه في جرف وردم عليه؛ خوفا من الشيعة "أن يظهروا عليه فيتشفوا منه" (٧٤٠).

وبالمثل كان الخلاف السياسي داخل المذهب الواحد كفيلًا أيضا بالقضاء على المعارضين للسلطة ودفنهم في أماكن غامضة غير معلومة، مهما بلغت منزلتهم والدور الذي قاموا به في سبيل قيام الدولة والتمكين لمذهبها، وهو ما ينطبق على تداعيات حادثة قتل المهدي الفاطمي للداعي أبي عبد الله

---

(٧٣٩) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٤.

(٧٤٠) المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٨-٢٩٩. أشارت المصادر السُنية إلى ظاهرة تمثيل الفاطميين بجثث أعدائهم ومخالفيهم، فبشكل عام "اشتد الأمر على أهل السنة فمن تكلم أو تحرك قتل ومُثّل به". انظر، القاضي عياض، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩. ولما قتل عروس المؤذن (ق٤هـ/١٠م" قُطع لسانه ثم "طيف به القيروان ولسانه بين عينيه". انظر، المالكي، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٢. وفي عام ٣٠١هـ/٩١٤م قتل القائد الفاطمي حباسة بن يوسف من أهل برقة ألف رجل، ثم أمر "بجمع جثثهم ووضع عليها كرسيًا وجلس فوقه ثم أدخل وجوه أهل البلد فنظروا إلى ما هالهم من كثرة القتلى". انظر، ابنعذاري، مصدر سابق، ج١، ١٧٠. وحين أجهز الموت على أبي يزيد النكاري دون أن يشفي منه المنصور غليله، تفنن الأخير في إظهاره كأنه حي، وأخضع جثتهله ذا النوع من الإذلال حيث "أمر بسلخه وحشو جلده قطنًا وخيطت وصاله حتى تمت جثته وصار كأنه نائم وقدد لحمه وملح". انظر، ابنحماد، مصدر سابق، ص٧٦.

الشيعي، هو وأخيه عام ٢٩٨هـ/٩١١م [٧٤١]، فيبدو أن قتل الداعي على ذلك النحو قد أثار قبيلة كتامة ـ التي قامت على أكتافها الدولة الفاطمية بالمغرب ـ ضد عبيد الله المهدي؛ مما دفعه إلى الاحتجاب عنهم مدة ثم أمنهم وأدخلهم عليه على حذر، ثم عمل بعد ذلك على قتل جماعة منهم "بأصناف القتل"[٧٤٢]، ومن ذلك أنه قتل منهم أكثر من ألف رجل في حادثة عرفت بوقعة كتامة بالقيروان عام ٢٩٩هـ/٩١٢م، فيبدو أنه استغل تطاولهم على أهل القيروان حتى أغرى بهم أهل السوق فقتلوا منهم ذلك العدد، ثم أمر عامل القيروان أحمد بن أبي خنزير "بتغييب القتلى فطرحوا في المراحيض"، ولحق من بقي من كتامة ببلادهم واستكملوا هناك ثورتهم بعبيد الله المهدي[٧٤٣].

وفي السياق ذاته قام باديس بن المنصور بن زيري بقتل وصلب عبد الله بن الوليد بن المغيرة، الذي ثار بإفريقية عام ٤٠٤هـ/١٠١٤م دون ذكر مكان دفنه [٧٤٤]، ومثله القائد عباد بن مروان الذي نُكب على يد المعز بن باديس بن زيري عام ٤٤١هـ/١٠٤٩م، بعد أن كان من خاصته؛ فاستصفيت أمواله ثم "أُلقي في سرداب مظلم حتى مات فيه" [٧٤٥].

وبالمثل لعبت الوشاية والسعاية ببعض كبار رجال الدولة دورها في إهانة دفن هؤلاء كعقوبة تكميلية للقتل والاستصفاء وإمعانًا في الانتقام منهم حتى بعد قتلهم، نموذج ذلك عبد الله الكاتب ـ عامل إفريقية أيام الفاطميين ومن بعدهم بني زيري ـ الذي بلغ من المكانة في عهد المنصور بن أبي الفتوح بن زيري (٣٧٢-٣٨٥هـ/ ٩٨٣ -٩٩٥) ما لم يبلغه أحد من قرابته وأهل بيته، في

(٧٤١) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٦٤.
(٧٤٢) ابن عذاري، مصدر سابق، ج١، ص١٦٥.
(٧٤٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٦.
(٧٤٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٠.
(٧٤٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٩.

الرياسة والسياسة وجمع الأموال؛ حتى حسده كبار رجال الدولة، ووشى به حسن ابن خالته ونقل أمورا عنه للمنصور من القدح في دولته، وأنه السبب في خروج الثائر أبي الفهم بكتامة؛ فقتله المنصور بنفسه عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م، و"دفن عبد الله الكاتب في الإسطبل دون غسل ولا كفن".(٧٤٦)

يندرج في علاقة السلطة بالمقابر أيضا اتخاذها **كمكان لتنفيذ العقوبات السياسية** بحق المغضوب عليهم في بعض الأحيان، وهو ما نلمسه في عقاب عبيد الله المهدي لابن قرهب عامل صقلية عام ٣٠٤هـ/٩١٧م، حيث اضطرب أمر صقلية على ابن قرهب، فناصره البعض، وأجمع آخرون على خلعه، وكاتبوا المهدي بشأنه، فقرر ابن قرهب الرحيل بمتاعه وأمواله إلى الأندلس، إلا أن أهل صقلية حالوا بينه وبين غرضه ونهبوا متاعه وقبضوا عليه وعلى ابنه وقاضيه وأرسلوهم مصفدين في الحديد إلى المهدي، الذي أمر بهم فضربوا بالسياط وقطعت أيديهم وأرجلهم على قبر الحسن بن أبي خنزير بباب سلم وصلبوا هناك، جزاءً على خلافهم، (٧٤٧) ولكن يبدو أن سبب عقوبتهم على ذلك النحو هو عزم ابن قرهب الرحيل إلى الأندلس، وبها بني أمية ألد خصوم الشيعة سواء على نطاق الخلاف المذهبي أو الصراع على المصالح والنفوذ ببلاد المغرب.

كانت رغبة السلطة في **التشفي والانتقام** دافعًا في بعض الأحيان إلى نبش القبور والتمثيل بجثث الموتى، وهو ما تواترت بشأنه الإشارات مشرقًا ومغربًا، في معظم حقب التاريخ تقريبًا (٧٤٨)، وهو ما تتوافر بخصوصه قرائن

(٧٤٦) المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٧٤٧) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٤.

(٧٤٨) بخصوص ظاهرة نبش القبور انظر، خالد حسن الجبالي، **"الجذور التاريخية لظاهرة نبش القبور في الإسلام حتى نهاية الخلافة العباسية (٦٥٨هـ/١٢٥٨م)"**، مجلة كلية الآداب ،جامعة طنطا، ع ٢١، ج ٣، ص١٢٢١-١٢٥٢.

خارج النطاق المكاني للبحث، إلا أنها ضمن الفترة الزمنية، وهو ما دفع الباحثة إلى الاستشهاد بها، فبعد قضاء المنصور الفاطمي على ثورة أبي يزيد الخارجي توجه إلى تاهرت وأمر"بنبش عظام مصالة وفضل بن حبوس وأحرقها بالنار" [٧٤٩]. ولما أراد المعز لدين الله الفاطمي تحريف قبلة جامع القيروان عام ٣٤٥هـ/٩٥٦م، بلغه أن أهل القيروان يقولون أن الله سيمنعه من ذلك بدعاء عقبة وقت تأسيسه الجامع؛ فغضب لذلك وأمر بنبش قبر عقبة وإحراق رمته بالنار؛ إمعانا في الانتقام من أهل القيروان، وبعث لذلك خمسمائة فارس وراجل، إلا أنهم حيل بينهم وبين ذلك بريح عاصف كادت تهلكهم، وهو ما عُد إحدى كرامات عقبة الذي كان مشهودًا له بإجابة الدعاء .

(٧٤٩) ابن حماد، مصدر سابق، ص٧٧.

خاتمة:

أسهمت دراسة المقابر الإسلامية ومجتمع إفريقيةمن القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجريين في الكشف عن علاقة أفراد المجتمع بالمقابر بدءًابصورة القبر في متخيلهم وموقفهم منه، كما صورته العقلية المغربية في مجتمع إفريقية، ومرورًا بتوزيع المقابر وتموضعها بإفريقية، وأهمية الدفن وشكل القبر وبناؤه، وعادات الدفن وتبعيتها للتمايز الطبقي، فضلا عن أشكال التعدي على المقابر وكيفية التصدي لها، كما أوضحت الدراسة العلاقة بين المقابروالحياة الاجتماعية والدينية والعلمية، فضلا عن أثرها على التمثلات الاجتماعية والذهنية خلال الفترة المدروسة، مع إبراز محددات علاقة السلطة بالمقابر والمقبورين، وقد أتاحت المادة العلمية المستقاة من المصادر على اختلاف مشاربها الخروج بمجموعة من النتائج، أهمها:

أن مسميات القبر المتداولة في مجتمع إفريقية تكاد تكون متماثلة مع نظيرتها في المشرق الإسلامي، سواء فيما يتعلق بأحد مكونات القبر، أو مكونات القبر جملة، أو مكان تجمع القبور.

أن صورة القبر ارتبطت بصورة الموت في أذهان أفراد المجتمع، وهي صورة اختلفت من شخص لآخر، ومن فئة اجتماعية لأخرى وذلك بحسب المعتقدات والتكوين العلمي والثقافي والثقل الاجتماعي للشخص المتوفى أو الأشخاص المرتبطين به عائليًا وعلميًا وولائيًا. فبرزت صورتان متناقضتان، الأولى: ترى الموت خسارة وفجيعة وصدمة كبرى، وهو ما هيمن على ثقافة الأغلبية من ساكنة مجتمع أفريقية، أما الثانية: فهي تتقبل الموت كقدر محتوم لكافة الخلق وتسعى إليه، وتعتبره نوعًا من الخلاص، ولا ريب فقد سادت تلك النظرة أوساط الزهاد والعباد وعدد من العلماء، وهو ما تماشى تماما مع فرضيات الدراسة في هذا الصدد.

شكلت العلاقة بين الأحياء والمقبرة حيزًا لا يستهان به من حياة أفراد مجتمع إفريقية خلال الفترة المدروسة، وقد برز ذلك من خلال الاهتمام بدراسة عديد من المسائل المهمة المتعلقة بها لاسيما في الوسط الأباضي. كما اتضح أن مكانة المتوفى العلمية والدينية بل والكرامية انعكست على مدى جلال قبره ورمزيته وحرمته بين الأحياء، ذلك الجلال الذي امتد ليشمل المدينة المدفون فيها، ليعطيها مكانة معتبرة بين المدن.

وتحقيقا لفروض الدراسة فقد اتضح أن احتضان مجتمع إفريقية للصلاح بشكل لافت للانتباه؛ جعل للقبرحضورًا ملموسًا في أدق تفاصيل الحياة اليومية؛ وهو ما لعب دورًا في تشكيل وصياغة ذهنيات وسلوكيات الأفراد والجماعات؛ ففضلا عن كون القبر مكانًا للاعتبار، فقد شكل أيضًا مادة رئيسية للوعظ والإرشاد، والدعاء، والرؤى، والوصايا، والأقوال المأثورة، والتمثلات، والمراثي.

اتضح من الدراسة أن تعدد المقابر كان مواكبًا لاستبحار عمران المدن بإفريقية، كما أنهاتوزعت في الغالب خارج الأسوار والأبواب كما افترضت الدراسة، كأحد أهم ملامح المدينة الإسلامية بوجه عام، إلا أن الدراسة أثبتت أيضا أن الفضاء الجغرافي للمقابر لم ينحصر فقط خارج أسوار المدن وأبوابها، بل كثيرا ما كانت تتسع المدن وتمتد خارج الأسوار عبر عديد من الأحياء الإضافية، ومن ثم تصبح المقابر داخل المدن، يضاف إلى ذلك مقابر أخرى اتخذت في الأساس داخل المدن.

وقد افترضت الدراسة وجود نوعين من المقابر عمومية وخاصة، إلا أنه بتمام الدراسة اتضح أن المقابر كانت ثلاثة أقسام: **أولًا: المقابر العمومية،** ومنها: المقابر العمومية خارج أبواب المدن أو داخلها، ومقابر الربط والقصور، والمقابر التي حبسها البعض على جماعة المسلمين لدفن موتاهم.

ثانيًا: مقابر عامة ـ خاصة بأوساط معينة كمقابر الأباضية في نواحي محيطهم الجغرافي، والمقابر المخصصة لأهل الذمة، فضلا عن المقابر الجماعية التي اتخذت إما أوقات الحروب أو المجاعات والأوبئة. **ثالثًا: المقابر الخاصة،** ومنها: مقابر بعض الأمراء في قصورهم، ومقابر العلماء في دورهم، ومقابر بعض العائلات الوجيهة، وبعض القبور بالمساجد و الروضات الخاصة.

استنتجت الدراسة أيضا أن بناء المقابر خارج المدن أو داخلها لم ينبع من تشريع وإنما من أعراف اقتضتها طبيعة الأمور فقد جرى العرف في الدولة الإسلامية منذ صدر الإسلام باتخاذ الخطط داخل كل مدينة وتوزيعها على القبائل، التي تُرك لها حرية اتخاذ مقبرتها حيث تشاء. ثم جرى العرف بقيام السلطات الحاكمة بتخصيص أماكن للدفن خارج المدن غالبا. ناهيك عن اتخاذ الأسر الحاكمة والوجيهة وبعض الأسر العلمية لمقابر خاصة كانت غالبا داخل المدن في القصور أو الروضات الخاصة أو المساجد، وهو ما لم تمنعه الشريعة الإسلامية، ولا ريب فقد كان ذلك ملمحا عاما طبع المدينة الإسلامية مشرقا ومغربا.

أما دور التشريع الإسلامي فقد برز في تقنين وضعية أرض المقابر واعتبارها حبس للصالح العام لا يجوز التعدي عليها بحال، كما برز فيما يتعلق بضوابط حفر القبر وبنائه والتصدي لأشكال المغالاة في تعليته وتزيينه وزخرفته، فضلا عن وضع الأطر الضابطة للمهن المتعلقة بالموت والقبر، ناهيك عن الموقف الفقهي من الدفن في المساجد، وتسويغ الانتفاع بأرض المقابر التي عفت من أجل الصالح العام، كبناء مساجد جديدة أو توسعة أخرى ضاقت بأهلها. فضلا عن التصدي لأشكال التعدي على المقابر حيث جرى التعامل معها على أنها حبس للصالح العام لا يجوز التعدي عليه بأي وجه.

خلصت الدراسة كذلك إلى أن الدفن هو أهم حق من حقوق الأموات، وأن صيانة الجسد بدفنه ضرورة لابد منها، فالقبر يعد أحد دلائل إثبات حالة الشخص من حيث الحياة أو الموت، وما يترتب على ذلك الإثبات من حقوق الزوجية والميراث والمعاملات وغيرها، ناهيك عما يورثه غياب الجثة وانعدام قبر يحوطها ويصون حرمتها من مرارة وحيرة لدى أهل المفقود؛ وهو ما يعكس أهمية الدفن.

ونظرًا لأهمية المقابر كإحدى المنشآت العامة المهمة التي تفي بحاجات الناس الجماعية، أمكن التكهن بأن السلطة خصصت أماكن بعينها للدفن بوجه عام، و ربما تولت الإشراف عليها، كما شارك أهل البر والخير في حبس الأرض للدفن عامة، أو حبس بعض المنافع على تلك المقابر ليرتفق بها عامة الناس.

استنتجت الدراسة كذلك أن شكل القبر وبناءه كان خاضعًا في المقام الأول للتمايز الطبقي، وهو ما افترضته الدراسة، ففي الوقت الذي اتسمت فيه مقابر العامة بالبساطة، تباهى الخاصة ورجال الطبقة الحاكمة واتخذوا شواهد القبور، وتأنقوا في بناء قبورهم بالحجارة والرخام، رغم التشديدات الفقهية في هذا الصدد، وهو ما ينطبق على ظروف الدفن الأخرى كجهاز الميت وكفنه وجنازته، ففي الوقت الذي لم يمتلك العامة في أغلب الأحوال ثمن جهازهم وتبرع أهل الخير بذلك، تفاخر الخاصة في جهازهم وطيوبهم وعدد أثواب كفنهم، فضلا عما اتخذه البعض من توابيت للدفن مرصعة بالذهب وأصناف الجوهر.

تحقق أيضا من خلال فروض الدراسة، تعرض مقابر إفريقية لضروب من الأخطار الطبيعية كالأمطار والسيول، وصنوف من التعديات البشرية، التي كان أهم أسبابها: زحف العمران وامتداده للمقابر، إلا أن التعدي على

المقابر كان في بعض الأحيان يتم دون قصد، وفي الأغلب الأعم كان مقصودا في ظل غياب إشراف الدولة، ومن أشكال التعدي الشائعة التي تصدى لها الفقهاء بقوة: الدفن في قبر الغير، أو اتخاذها طريقًا، أو فتح النوافذ والأبواب إليها، أو البناء والحرث فيها، أو التعدي على ترابها واستخدامه من قبل بعض الحرفيين في صنع الفخار، ناهيك عن نبش القبور الذي كان يتم ربما بهدف الانتقام والتشفي أو بغرض السرقة، فضلا عن ذلك هناك نبش كان بغرض نقل الميت لقبر آخر أو لاستخراج بعض المفقودات، وهو ما أباحه الفقهاء في بعض الأحيان شريطة عدم تغير الميت بمرور الوقت.

شكل القبر مفصلًا مهمًا من مفاصل الحياة الاجتماعية كما افترضت الدراسة، فقد كان له حضور ملحوظ في حياة أفراد مجتمع إفريقية، عبر ارتباطه بعديد من أصحاب المهن والحرف، التي تدر الرزق وتوفر سبل المعاش للفئات الفقيرة من المجتمع، كالغاسل والحناط وبائع الكفن وحافر القبر، وبانيه وصانع شاهده، وحامل النعش وقارئ القرآن والنائحة، والزَوَّار أو القيم على القبر، تلك المهن التي عانى أصحابها من تعاطي اجتماعي سلبي من قبل باقي أفراد المجتمع، شأنهم شأن بقية أصحاب المهن الأخرى من فئات العوام، إن لم يكن وضعهم أسوء حالًا، من حيث شيوع التشاؤم والنفور منهم.

تبين من الدراسة أيضا أن تحديد موضع الدفن سبب بعض النزاعات العائلية في بعض الأحيان، كما ارتبط القبر ببعض العادات، كالاحتشاد بالمقبرة وانتظار الجنائز لتحصيل أجر المواراة، ولبس الملابس القاتمة، وأداء العزاء، وحضور صبيحة القبر، وقراءة القرآن، وتعهد القبر بالزيارة، وهو وإن كان دافعًا لأخذ العظة والعبرة على المستوى الشخصي، إلا أنه على المستوى الاجتماعي كان محركًا على أداء الصدقة والتفاني في فعل الخير بوجه عام. ولما

كان قطاع من ساكنة إفريقية يعيش حياة مزرية فقد لجأ بعضهم إلى اتخاذ سكنهم بالمقابر.

ارتبطت المقابر كذلك بعدد من السلوكيات الفردية السلبية، وبعض الجرائم الأخلاقية، التي حاول الفقهاء والصلحاء مجابهتها بطرق عدة سواء عبر فتاويهم، أو المجابهة الواقعية عبر تغيير المنكر، أو بإنزال العقوبات الكرامية الرادعة بحق من يتجرأ على حرم أولياء الله الصالحين بفعل الفاحشة أو السرقة أو شرب الخمر.

وفيما يتعلق بالذهنيات والمعتقدات المرتبطة بالقبر، فقد برزت معتقدات عدة كان القبر قاسمًا مشتركًا فيها، منها ما عبر عن عميق الصلة بين الله والبشر تارة، وبين الأموات والأحياء تارة أخرى، فضلا عن غيبيات أخرى تمثلت في تمام الاعتقاد في مقابر أولياء الله الصالحين والتعلق بها مثلما كان الاعتقاد في أصحابها وهم أحياء؛ ومن ثم برز أثر الولاية وظهرت الكرامة الصوفية كتعبير عن الواقع المعاش سواء كان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا، تلك الكرامة التي لاقت إيمانا وتقديسا لها من جميع أفراد المجتمع، لاسيما العوام، الذين وجدوا في ذلك التبجيل القدرة على مواجهة مشكلات الحياة التي يعجزون عن حلها كظلم الحكام أو الضيق المالي أو الأمراض والأزمات الصحية أو الكوارث الطبيعية كالجفاف والجراد والأوبئة، وغيرها من المعضلات اليومية من خلال التوسل والتبرك بأضرحة الأولياء والزهاد والعباد.

خلصت الدراسة أيضا أن ثمة علاقة بين القبر والحياة الدينية والعلمية تحقيقا لأحد فروضها، فقد كانت المقبرة مكانًا مباحًا لأداء الصلاة والتعبد والخلوة لاسيما لبعض الزهاد الذين فضلوا حياة العزلة، كما كانت المقابر مكانا لنشر العلم لاسيما في أوقات اضطهاد العلماء المخالفين مذهبيا للسلطة

القائمة، وهو ما اتضح جليا خلال العصر الفاطمي، الذي شهد صنوفا من أشكال التضييق وحظر الرأي والحريات لاسيما لفقهاء المالكية. وإذا كان الاضطهاد قد دفع المالكية إلى اللجوء للمقابر للتستر ولقاء طلبتهم، فقد كان التبرك بمشاهد جبل نفوسة دافعا للأباضية لاتخاذها أماكن لتدارس العلم وتبادله ونشره.

وكما افترضت الدراسة، فقد تبين من خلال البحث أن ثمة محددات لعبت دورًا مهمًا في صياغة علاقة السلطة بالمقابر والمقبورين، منها: كونها سلطة لها حق إصدار الأوامر والمراسيم المنظمة، كما لها حق استغلال ما تراه مناسبا من المقابر للصالح العام، يضاف إلى ذلك مكانة المقبور في المجتمع، والتي حددت طريقة تعاطي السلطة مع جنازته وقبره سلبًا وإيجابًا، فضلا عن مذهبه ومدى صدامه أو مواءمته للسلطة، ومدى اقترافه لبعض المخالفات والتجاوزات، وهو ما حدد قطعًا نوع عقوبته ومكان تنفيذها وكذا طريقة دفنه سواء بمراعاة حرمة جسده أو بانتهاكها وإهانة دفنه.

وبذلك فقد انتقلت الدراسة من التصورات الجماعية عن المقابر والموت والمقبور إلى الإدراكات والأحاسيس المرتبطة، ثم إلى السلوكيات الجماعية التي تعد في النهاية نتاجا لتلك التصورات.

ملاحق الدراسة

ملحق (١) خريطة توضح أهم مدن إفريقية،

نقلا عن (بتصرف): لطيفة بنت محمد البسام، الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ٢٠٠١م، ص٥.

ملحق (٢) نقيشة قبر قاضي إفريقية عبد الله بن هاشم (ت ٣٦٣هـ/ ٩٧٤م)

" بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد نبيه/ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يو/لد ولم يكن له كفوا أحد كل نفس /ذايقة الموت وانما توفون اجوركم/يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل /الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع/الغرور هذا قبر القاضي عبد الله بن هاشم توفي يوم الاثنين لست بقين من شعبان/سنة ثلاث وستين وثلثماية وهو يشهد الا لا اله ا/لا الله وحده لا شريك لهوان محمدا عبده/ورسوله صلى الله عليه وعلى اهله وسلم ا /رسله بالهدى ودين الحق ليظهره على ا/لدين كله ولو كره المشركون وان الجنة حق والنار حق والحساب حق و/ان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله يبعث/من في القبور على هذه الشهادة حيى و /عليها يبعث حيا رحم الله /من دعى له ولوالديه ولجميع المسلمين بالر/حمة والمغفرة وصلى الله على محمد خا/تم النبيين وعلى اله الطيبين وسلم".

نقلا عن: نصر الحنزولي، بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري، ص٩٨.

ملحق (٣) نقيشة قبر أبي محمد حميد بن أبي جعفر بن علي بن حميد (ت٢٩٣هـ/٩٠٦م)

"بسم الله الرحمن الرحيم /قل هو الله احد الله الصمد /لم يلدولم يولد ولم يكن /له كفوا احد هذا قبر ابي /محمد حميد بن ابي جعفر /بن علي بن حميد استشهد ليلة الاثنين /لخمس عشر بقين من صفر سنة /ثلاث وتسعين ومايتين وهو /يشهد ان لا اله الا الله و/حده لا شريك له وان محمد /ا عبده ورسوله ارسله /بالهدى ودين الحق ليظهر /ه على الدين كله ولو كره ا /لمشركون صلى الله عليه و/سلم وان الجنة حق والنار /حق (و) ان البعث حق وان الساعة اتية لا ريب فيها وان الله /يبعث من في القبور وان. . . . . /. . . . . ".

نقلا عن: نصر الحنزولي، بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري، ص٩٣.

ملحق (٤) شاهد قبر على شكل عمود أو اسطوانة

نقلا عن: لطفي عبد الجواد: صناعة النقائش الجنائزية بالقيروان – الورشات الغير موقعة، ص٣٤.

ملحق (٥) مجموعة شواهد إفريقية على شكل سيف

نقلا عن: لطفي عبد الجواد: صناعة النقائش الجنائزية بالقيروان الورشات الغير موقعة، ص٣٥.

ملحق (٦) مجموعة شواهد على شكل ألواح

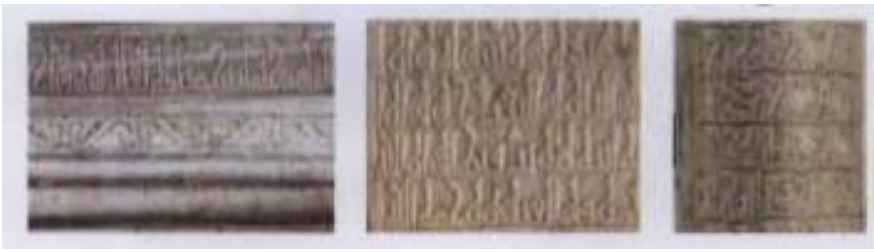

نقلا عن: لطفي عبد الجواد: صناعة النقائش الجنائزية بالقيروان الورشات الغير موقعة، ص٣٣.

المصادر والمراجع

أولًا: المراجع العربية:

١. إبراهيم القادري بوتشيش: **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع- الذهنيات – الأولياء**، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٣.

٢. الإدريسي (أبو عبدالله محمد بن عبدا لله بن إدريس، ت٥٥٨هـ/١١٦٢م): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٩ هـ.

٣. ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعي، ت٦٥٨ هـ/١٢٦٠م): **الحلة السيراء**، تحقيق: حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف – القاهرة، ١٩٨٥.

٤. ـــــــ: **المقتضب من تحفة القادم**، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.

٥. أحمد مختار العبادي: **في تاريخ المغرب والأندلس**، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ٢٠٠١.

٦. البرزلي (أبو القاسم محمد بن احمد البلوى، ت٨٤٤هـ /١٤٤٠م): **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢.

٧. ابن بسام: (محمد بن أحمد المحتسب ت٦٢٦/١٢٢٩م): **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، أحمد فريد المزيدي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٣ م.

٨. البغطوري (مقرين بن محمد النفوسي، كان حيًا عام٥٩٩هـ/١٢٠٢م): **سير مشايخ نفوسة**، تحقيق: توفيق عياد الشقروني، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠٠٩م.

٩. البكري (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب، ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م): **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د. ت.

١٠. التجاني (عبد الله بن محمد بن احمد، ت٧١٧هـ/١٣١٧م): **رحلة التجاني**، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨١.

١١. التسولي (أبو الحسن عبد السلام بن علي، ت ١٢٥٨هـ/١٨٤٢م): **البهجة في شرح التحفة (شرح تحفة الحكام)**، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٨م.

١٢. ابن الجَلَّاب المالكي (أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن الحسن، ت، ٣٧٨ هـ/٩٨٨ م): **التفريع في فقه الإمام مالك بن أنس**، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧.

١٣. الجوذرى(أبو على منصور العزيزى، ت منتصف ق٤هـ/١٠م (: **سيرة الأستاذ جوذر وبه توقيعات الفاطميين**، تحقيق: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٥٤.

١٤. ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي، ت ٧٣٧هـ/١٣٣٧م): **المدخل**، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت.

١٥. أبو حامد الغرناطي (عبد الرحيم بن سليمان بن ربيع، ت٥٦٥هـ/ ١١٦٩م): **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق: إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٨٢.

١٦. حاييم زعفراني: **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب**، ترجمةأحمد شعلان وعبد الغنى أبو العزم، د. م، ١٩٨٧.

١٧. حسن حسني عبد الوهاب: **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**، مكتبة المنار، تونس، ١٩٦٤.

١٨. حسين مؤنس: **الطرق الصوفية وأثرها في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى**"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، عدد٢١، مدريد ١٩٨١-١٩٨٢، ص٨١-١٣٢.

١٩. الحصري القيرواني (أبو إسحاقإبراهيم بن على بن تميم، ت ٤١٣هـ /١٠٢٢م): **ديوان المتفرقات**، تحقيق: محمد المرزوقي، الجيلاني الحاج يحيي، مطبعة المنار، تونس، ١٩٦٣م

٢٠. ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن على بن عيسى، ت ٦٢٦هـ /١٢٢٨م): **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ١٤٠١هـ.

٢١. الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت ق ٩هـ/١٥م): **كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م.

٢٢. خالد حسن الجبالي: "**الجذور التاريخية لظاهرة نبش القبور في الإسلام حتى نهاية الخلافة العباسية (٦٥٨هـ/١٢٥٨م)**"، مجلة كلية الآداب ،جامعة طنطا، ع ٢١، ج ٣، ص١٢٢١-١٢٥٢.

٢٣. خالد حسين محمود: "**الجانب السياسي في حياة الفقيه أبي عمران الفاسي**"، مجلة التاريخ العربي، جمعية المؤرخين المغاربة،ع ٥٩، ٢٠١٢، ص ١١٥– ١٦٥.

٢٤. خالد مودود: "**النقائش العربية بإفريقية وتطورها من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري**"، ضمن أعمال المؤتمر الحادي عشر للآثار في الوطن العربي "النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي"، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٨٨، ص٣٩-٥٢.

٢٥. ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، ت حوالى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م): **كتاب المسالك والممالك**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.

٢٦. الخشني (أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسدالقيروانى، ت٣٦١هـ/٩٧١م): **طبقات علماء إفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت.

٢٧. ابن الخطيب (لسان الدين محمد السليمانى ت٧٧٦هـ/١٣٧٤م): **مثلا الطريقة في ذم الوثيقة**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣.

٢٨. ابن خلدون (ولى الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمى، ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م): **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨.

٢٩. ابن خلكان: (شمس الدين أبو العباس احمد، ت٦٨١ هـ/١٢٨٢م): **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

٣٠. خليل بن إسحاق (ضياء الدين خليل بن اسحاق بن موسي الجندي، ت ٧٦٧ هـ / ١٣٧٤ م): **التوضيح في شرح المختصر الفرعي لابن الحاجب**، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه للمخطوطات وخدمة التراث، ٢٠٠٨.

٣١. الداعي إدريس (عماد الدين القرشي، ت ٨٧٢ هـ/١٤٦٧م): **تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب "من كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار"**، السبع الخامس، تحقيق فرحات الدشراوي، ط. تونس، ١٩٧٩م.

٣٢. الداودي (أبو جعفر احمد بن نصر، ت٤٠٢ هـ/١٠١١م): **كتاب الأموال**، تحقيق: محمد سالم شحادة، مطبعة دار الثقافة، الرباط، د. ت.

٣٣. الدباغ (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، ت٦٩٦ هـ/١٢٩٦م): **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق: إبراهيم شبوح وآخرين، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٦٨م.

٣٤. الدرجيني (أبو العباس احمد، ت منتصف ق ٧هـ/١٣م): **طبقات المشائخ بالمغرب**، تحقيق: إبراهيم طلاي، قسنطينة، ١٩٧٤م.

٣٥. ابن أبي دينار (محمد بن أبى القاسم الرعينيالقيروانى، ١٠٩٢ هـ/١٦٨١م): **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، ط١، مطبعة الدولة التونسية، ١٣٨٦هـ.

٣٦. الذهبي (شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان، ت ٧٤٨هـ/، ١٣٧٤ م): **سير أعلام النبلاء**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.
٣٧. ابن رشد القرطبي (أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، ت٥٢٠هـ/١١٢٦م): : **مسائل أبي الوليد ابن رشد**، تحقيق: محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل، بيروت – دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط٢، ١٩٩٣.
٣٨. ابن رشيق القيرواني (حسن بن رشيق، ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م): **أنموذج الزمان في شعراء القيروان**، تحقيق محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٦.
٣٩. ابن رشيق: **ديوانه**، جمع وترتيب عبد الرحمن باغي، دار الثقافة، بيروت، د. ت.
٤٠. الرقيق القيرواني (إبراهيم بن القاسم القيرواني، ت النصف الأول من ق ٥ هـ /١١م): **قطعة من تاريخ أفريقيا والمغرب**، تحقيق عبد الله العلي وعز الدين موسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٠.
٤١. الزجالي (أبو يحيى عبيد الله بن أجمد الزجالي القرطبي، ت٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م): **أمثال العوام في الأندلس**، تحقيق: محمد بن شريفة، القسم الثاني، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، فاس، ١٩٧٥.
٤٢. ابن أبي زرع (أبو حسن بن عبد الله الفاسي، ت ٧٢٠هـ/١٣٢٠م): **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دارالمنصور للطباعة والنشر، الرباط ١٩٧٣.
٤٣. أبو زكريا (يحيى بن أبى بكر، ت النصف الثاني من ق٤هـ/١٠م): **كتاب سير الأئمة وأخبارهم**، تحقيق إسماعيلالعربي، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٩.
٤٤. ابن أبي زيدالقيرواني (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، ت٣٨٦هـ/٩٢٨م): **النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات**، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٩.
٤٥. ـــــــــــ: **الجامع في السنن والآداب والمغازي والتاريخ**، تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.
٤٦. ابن سحنون (أبو عبد الله محمد بن عبد السلام، ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م): **كتاب الأجوبة**، تحقيق: : حامد العلوينى، دار سحنون للطباعة والنشر، تونس، ٢٠٠٠.
٤٧. السقطي (محمد بن أبي محمد السقطي المالقي، ت حوالي ٥٠٠هـ/١١٠٧م): **في آداب الحسبة**، المطبعة الدولية، باريس، ١٩٣١.

٤٨. سلمان محمد البدراني: **"إمارة بني خراسان في تونس دراسة في أوضاعها السياسية ٤٤٦ – ٥٥٤ هـ"**، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، مج ١٢، ع ٣، ٢٠١٣، ص ٤٤٥ – ٤٦٢.

٤٩. سيد أحمد صقر: **" من أدبنا المجهول، شاعر يرثي ولده"**، ضمن كتاب مقالات العلامة المحقق اللغوي الأديب السيد أحمد صقر، جمع: أحمد بن موسى الحازمي، دارالتوحيد للنشر، الرياض، ٢٠٠٩، ص١٤٠– ١٦٠.

٥٠. الشاطبي (أبو اسحاق إبراهيم بن موسى، ت٧٩٠هـ/١٣٨٨م): **الفتاوى**، تحقيق: محمد أبو الأجفان، نهج لواز، الوردية، تونس، ط٢، ١٩٨٥.

٥١. الشماخي (أبو العباس احمد بن سعيد بن عبد الواحد، ت٩٢٨هـ/١٥٢٢م): **تراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس الهجري**، تحقيق ودراسة محمد حسن، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، م ٣٠، ١٩٩٥.

٥٢. الشيزري (عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب الشافعي، ت٥٩٠هـ/١١٩٤م): **نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د. ت.

٥٣. الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، ت ٧٦٤هـ /١٣٦٢م): **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠.

٥٤. طاهر مظفر العميد: **"تأسيس مدينة القيروان"**، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، مج١، ع٢١، ١٩٧٧، ص٣٣٧-٣٥٢.

٥٥. الطرطوشي (أبو بكر محمد بن الوليد، ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م): **الحوادث والبدع**، تحقيق: علي بن حسن الحلبي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٨.

٥٦. ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، ت٢٥٧هـ/ ٨٧٠م): **فتوح مصر والمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٥ه.

٥٧. عبد الفتاح فتحي عبدالفتاح: **المسلمون في المغرب والأندلس**، دار الهاني للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٥– ٢٠٠٦.

٥٨. عبدالحميدالبحروني: **"أسواق مدينة القيروان في العصر الوسيط من خلال المصادر والآثار"** ضمن كتاب: القيروان عاصمةحضارية في تاريخ المغرب الإسلامي، المطبعة الرسمية، تونس، ٢٠٠٦، ص ٤٦–٧١.

٥٩. عبد العزيز بل الفايدة: **"صورة الموت من خلال النقائش اللاتينية"**، مجلةالآداب والعلوم الإنسانية، كليةالآداب والعلوم الانسانية، جامعةابنطفيل، ٢٠٠٨، ع ٨، ص٧–١٥.

٦٠. عبدالقادرزمامة: " **أبوعمران الفاسي الغفجومي أول مفكر في تأسيس دولة المرابطين**"، ضمن أعمال ندوة: " أبوعمران الفاسي: حافظ المذهب المالكي"، الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، ٢٠٠٠، ص٣٩٣ – ٤٠٦.

٦١. ابن عبدون (محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي، ت النصف الأول من ق٦هـ/١٢م): **رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة**، تحقيق: ليفي بروفنسال، الناشر: مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥.

٦٢. ابن عذاري (أبو محمد عبد الله بن محمد المراكشي، ت٧١٢هـ/١٣١٣م): **كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج١، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٦٣. أبو العرب تميم (محمد بن احمد بن تميم القيرواني، ت٣٣٣هـ/٩٤٢م): **طبقات علماء إفريقية**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د. ت.

٦٤. أبو العرب تميم: **كتاب المحن**، تحقيق يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦.

٦٥. ابن عرفة التونسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م): **المختصر الفقهي لابن عرفة**، تحقيق: حافظ عبد الرحمن محمد خير، مؤسسة خلف أحمد الخبتور للأعمال الخيرية، دبي، ٢٠١٤.

٦٦. عصام الدين عبد الرؤوف الفقي: **تاريخ المغرب والأندلس**، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ١٩٨٤.

٦٧. العقباني (محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التلمساني، ت٨٧١هـ/١٤٦٧م): **تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق: علي الشنوفي، المعهد الثقافي الفرنسي، دمشق، ١٩٦٧.

٦٨. أبو عمران الفاسي (موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي ت ٤٣٠ هـ/١٠٣٩م: **فتاوى أبي عمران الفاسي**، جمع وتحقيق: محمد البركة، دار نشر أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٠.

٦٩. الفارسي (أبو الطاهر محمد بن الحسين الفارسي، ت بعد ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م): **مناقب محرز بن خلف**، تحقيق هـ. ر. ادريس، باريس، ١٩٥٠.

٧٠. ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن فرحون المالكي، ت٧٩٤/١٣٩١م): **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٧١. القاضي عياض (عياض بن موسى بن عياض السبتي، ت ٥٤٤ هـ/١١٤٩م): **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ضبط وتصحيح: محمد صالح هاشم، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

٧٢. القاضي عياض وولده محمد: **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام**، تحقيق وتعليق: محمد بن شريفة، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ١٩٩٠.

٧٣. القاضي النعمان (أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور، ت٣٦٣هـ/٩٧٣م): **كتاب الاقتصار**، تحقيق: محمد وحيد ميرزا، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٥٧.

٧٤. ـــــــ: **افتتاح الدعوة**، تحقيق: فرحلات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٢، ١٩٨٦.

٧٥. ـــــــ: **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق الحبيب الفقي وآخرون، دار المنتظر، بيروت، ١٩٩٦.

٧٦. ـــــــ: **دعائم الإسلام**، تحقيق: آصف بن علي فيضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

٧٧. القرطاجني: (أبو الحسن حازم بن محمد بن حسن ت ٦٨٤هـ/١٢٥٨م): **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تحقيق: محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.

٧٨. اللبيدي (أبو القاسم بن محمد الحضرمي، ت بعد ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م): **مناقب أبي إسحاق الجبنياني**، تحقيق روجيه إدريس، باريس، ١٩٥٩.

٧٩. اللخمي (أبو الحسن علي بن محمد الربعي القيرواني، ت٤٧٨هـ/١٠٨٦م): **التبصرة**، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الكريم نجيب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ٢٠١١.

٨٠. لطفي عبد الجواد: **النقائش العربية بكبرى مدن إفريقية التونسية إلى نهاية القرن الخامس الهجري**، رسالة لنيل شهادة الدراسات المعمقة، كليةالعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٦.

٨١. لطفي عبد الجواد: "**الطاعون بإفريقية من خلال شواهد قبور قيروانية جديدة**"، ضمن أعمال الندوة العلمية الدولية: "القيروان وجهتها: دراسات جديدة في الآثار والتراث" كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان، تونس، ٢٠٠٩، ص ٨٩-١٠٥.

٨٢. لطفي عبدالجواد: " **صناعة النقائش الجنائزية بالقيروان-الورشات غير الموقعة خلال القرن الخامس الهجري**"، المجلة التونسية لعلمالآثار، ع١، تونس، ٢٠١٣م، ص٣١-٥٥.

٨٣. لطيفة بنت محمد البسام: **الحياة العلمية في إفريقية في عصر بني زيري**، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ٢٠٠١م.

٨٤. المازري (أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التَّمِيمي المالكي، ت٥٣٦هـ/١١٤٢م): **شرح التلقين**، تحقيق: محمَّد المختار السّلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨.

٨٥. المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله، ت حوالي٤٧٩هـ/١٠٨٦م): **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية**، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٤.

٨٦. محمد الأمين بلغيث: **الربط بالمغرب الإسلامي ودورها على عهد المرابطين والموحدين**، رسالة ماجستير، معهدالتاريخ، جامعةالجزائر، ١٩٨٦-١٩٨٧.

٨٧. محمد انقزو: **مجتمع المدن الإفريقية من خلال رياض النفوس**، شهادة الكفاءة في البحث، غيرمنشورة، كليةالعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٧.

٨٨. محمد الحبيب بنعبدالجليل: **المجتمع الأفريقي من خلال كتاب طبقات علماءإفريقية وتونس لأبي العرب تميم**، شهادةالكفاءة في البحث، كليةالعلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٦.

٨٩. محمد حسن: "**القيمة الفنية التاريخية للكتابات الشاهدية الإفريقية- مثال القيروان**"، مجلة الحياة الثقافية، ع ٢٥، تونس، يناير –فبراير ١٩٨٣م، ص٤-١٢.

٩٠. محمد حقي: "**عن الموت: تجهيز الموتى ومهن الموت**"، مجلة عصور الجديدة، المجلد ٨، العدد ٢، الجزائر، ديسمبر ٢٠١٨م، ص٤٧-٦٨.

٩١. محمد بن سالم مخلوف: **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، دارالكتاب العربي، بيروت ١٣٤٩هـ.

٩٢. محمدالشريف: **نصوص دفينة ودراسات**، ط٢، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تيطوان، ١٩٩٩.

٩٣. محمد صبري محسوب: "**القيروان عند الجغرافيين المسلمين، قراءة وتحليل**"، ضمن أعمال ندوة "موقع القيروان في الثقافة الإسلامية من تاريخ التأسيس إلى اليوم – الدين والأدب"، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعةالزيتونة، ٢٠١٠، ص٥٢١-٥٣٥.

٩٤. محمد عبد الستارعثمان: **المدينة الإسلامية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ١٩٨٨.

٩٥. محمد عبد العمر: **الأباضية النكار في المغرب الأوسط من القرن الثاني حتي السابع الهجري**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠٠٤.

٩٦. محمد العمراني: "**كتب المناقب وترسيخ الاعتقاد في الكرامات الصوفية**"، مجلةأمل، مج١٦، عدد ٣٥، ٢٠٠٩م، ص ٥٢- ٧٣.

٩٧. محمد مزين: "**الموت في مغرب القرن العاشر من خلال كتاب "الجواهر" للزياتي**"، ضمن أعمال اللقاء العلمي التاريخ وأدب النوازل، دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ١٩٨٩، ص١٠١-١١٧.

٩٨. المراكشي (عبد الواحد، ت ق٦هـ /١٢م): **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، تحقيق: صلاح الدين الهواري، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦.

٩٩. المقدسي (أبو عبد الله محمد بن احمد المعروف بالبشاري، ت حوالى ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م): **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم**، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١.

١٠٠. مقديش (أبو الثناء محمود بن سعيد، ت١٢٢٨/١٨١٣م): **نزهة النظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزاوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٩٨٨.

١٠١. المقريزي (تقي الدين، أحمد بن علي بن عبد القادر، ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م): **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، تحقيق: جمال الدين الشيال، ط١، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، د. ت.

١٠٢. ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على، ت٧١١هـ/١٣١١م): **لسان العرب**، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

١٠٣. مؤلف مجهول (ق٦هـ/١٢م): **الاستبصار في عجائب الأمصار**، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، ١٩٨٥.

١٠٤. ميشيل فوكو: **المراقبة والمعاقبة ولادة السجن**، ترجمة علي مقلد، مركزالإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠.

١٠٥. نصر الحنزولي: **المجتمع بإفريقية من خلال النقائش في العصر الأغلبي**، شهادةالدراسات المعمقة، غيرمنشورة، كليةالآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، ٢٠٠٥.

١٠٦. نصرالحنزولي: "**بعض العائلات القيروانية من خلال النقائش إلى نهاية العهد الزيري**"، ضمن أعمال ندوة "القيروان عاصمة حضارية في تاريخ المغرب الإسلامي"، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، جامعة الزيتونة، ٢٠٠٦، ص٧٩-١٠٨.

١٠٧. الهادي روجيه إدريس: **تاريخ الدولة الصنهاجية**، ترجمة: حمادي الساحلي، ط١، دارالغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ١٩٩٢.

١٠٨. الوادي آشي (محمد بن جابر بن محمد بن قاسم القيسي، ت٧٤٩ هـ/١٣٣٨ م): **برنامج الوادي آشي**، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، تونس، ١٩٨١.

١٠٩. الوسياني: **السير**، تحقيق ودراسة: عمر بو عصبانة، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة عمان، ٢٠٠٩.

١١٠. الونشريسي (أبو العباس احمد بن يحيى، ت ٩١٤ هـ/١٥٠٨م): **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق: مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨١.

١١١. ياقوت الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت الحموي الرومى، ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨ م): **معجم البلدان**، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥.

١١٢. يحيى بن عمر (أبي زكريا يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي، ت٢٨٩هـ/٩٠١م): **كتاب أحكام السوق**، تحقيق: محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٥٦م، م٤، ع ١-٢.

١١٣. اليعقوبي (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح، ت٢٨٤هـ/٨٩٧ م): **البلدان**، تحقيق ديغويه، مطبوع مع الأعلاق النفيسة لابن رستة، طبعة ليدن، ١٨٩٢.

١١٤. ابن يونس الصقلي (أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس التميمي، ت٤٥١هـ/ ١٠٥٩م): **الجامع لمسائل المدونة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٣.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1. Jodelet, Denis. **representationsociale ,phenomène ,concept,théorie**. puf 2ème ed Paris: 1984.
2. Julien, Despois**. Le DjebelNefousa**. Paris: 1935.
3. Masse, Henry. **Le Islam**. Paris: 1966.
4. Goitein, ShelomoDov. **A Mediterranean Society the Jewish communities of the Arab world as portrayed in the documents of the Cairo Geniza**. USA: University of California Press,1983.
5. Hirschberg ,Wilhelm. **A History of the Jews in North Afrrica**. 1, Leiden: Ej brill, 1974.
6. Mann, Jacob. **Texts and studies in Jewish History and literature**. New york: 1972.
7. Marcais, George. **L'urbanisme Musulman in Melange d'Histoire et d'Archaeogiede de L'Accident Musulman**. Rabat: Imprimerie Officielle, 1957.
8. Norbert, Sillamy. **dictionnaire usuel de psychologie**. Paris: 1980.